الفصل الحادى عشر

أسبانيا و حركة التنوير

١٧٠٠ — ٨٨

١ — البيئـــة

أوصى شارل الثانى ، آخر الهابسبورجيين الأسبان ، عند وفاته عام ١٧٠٠ ، بأسبانيا وكل امبراطوريتها العالمية لفرنسا البوربونية — العدو القديم لآل هابسبورج ، وقد قاتل حفيد لويس الرابع عشر ، الذى لقب بفليب الخامس ملك أسبانيا ، ببسالة خلال حرب الوراثة الأسبانية (١٧٠٣ — ١٢) للاحتفاظ بوحدة تلك الامبراطورية كاملة ، واشتقت أوربا كلها تقريباً الحسام للحيلولة دون هذا التوسع الخطر فى قوة البوربون . وأخيراً أكرهت أسبانيا على النزول عن جبل طارق ومينورقة لانجلترة ، وصقلية لسافوى ، ونابلى وسردانيا وبلجيكا للنمسا .

ثم إن فقد أسبانيا لقوتها البحرية لم يترك لها سوى قبضة ضعيفة على المستعمرات التى كانت تغذى تجارتها وثروتها . فقمح أمريكا الأسبانية مثلا كان يعطيها غلة بلغت من خمسة إلى عشرين ضعفاً فى الفدان لقلة الأرض الأسبانية . وجادت تلك الأراضى المشمسة بالزئبق والنحاس والزنك والزرنيخ والأصباغ واللحوم والجلود والمطاط والقرمز والسكر والكاكاو والبن والتبغ والشاى والكينين وكثير من العقاقير الأخرى . وفى ١٧٨٨ صدرت أسبانيا لمستعمراتها الأمريكية بضائع قيمتها ١٥٨,٠٠٠,٠٠٠ ريال ، واستوردت منها بضائع قيمتها ٨٠٤,٠٠٠,٠٠٠ ريال ولكن هذا « الخلل فى الميزان التجارى الذى لم يكن فى مصلحة أسبانيا محاه سيل متدفق من الفضة والذهب الأمريكيين . وأرسلت الفلبين شحنات سفن من الفلفل والقطن والنيلة وقصب السكر . وقد بلغ سكان الفلبين فى تقرير الكسندر فون همبولت

فى ختـــام القرن الثانى عشر ١,٩٠٠,٠٠٠ ، وسكان أمريكا الأسبانية ١٦,٩٠٢,٠٠٠ ، أما أسبانيا نفسها عام ١٧٩٧ فقد بلغ سكانها ١٠,٥٤١,٠٠٠[١] . وأنه لفضل يعزى لحكم البوربون أن هذا الرقم الأخير يعنى تضاعف السكان الذين لم يزيدوا على ٥,٧٠٠,٠٠٠ عام ١٧٠٠ .

لم تسخ الجغرافيا على أسبانيا إلا بميزة التجارة البحرية . كانت الأرض فى الشمال خصبة تغذرها الأمطار والثلوج الذائبة من جبال البرانس ، وكانت قنوات الرى (وأكثرها خلفه المغاربة للغالبين) قد استصلحت الأراضى الجدباء فى بلنسية ومرسية والأندلس ، ولكن باقى أراضى أسبانيا كان جبليا أو قاحلا إلى درجة مثبطة للهمم . ولم يتح لهبات الطبيعة أن تنمو وتتطور بفضل الإقدام الاقتصادى ، فذهب أكثر الأسبان حباً للمغامرة إلى المستعمرات ، وفضلت أسبانيا أن تشترى المنتجات الصناعية من الخارج بذهب مستعمراتها وماتغله مناجم الفضة أو النحاس أو الحديد أو الرصاص فى أسبانيا ذاتها . وتخلفت صناعاتها التى كانت لاتزال فى المرحلة النقابية أو البيتية تخلفاً شديداً عن صناعات أقطار الشمال النشيطة ، وكان الكثير من مناجمها الغنية تشغله الإدارة الأجنبية لفائدة المستثمرين الألمان أو الإنجليز . واحتكرت «المستا» إنتاج الصوف ، وهى اتحاد من ملاك قطعان الغنم ميزته الحكومة ، ورسخت التقاليد قدمه ، وسيطرت عليه فئة قليلة من النبلاء والأديرة . وخنقت المنافسة ، وتخلفت أسباب التحسين . وتعفنت بروليتاريا ضئيلة فى المدن ، تشتغل خدماً لكبار القوم أو عمال مياومة فى النقابات الحرفية ، وكانت منازل الأثرياء تزدان ببعض العبيد الزنوج أو المغاربة . وعاشت طبقة وسطى صغيرة معتمدة على الحكومة أو الأشراف أو الكنيسة .

وكان ٥١,٥٪ من الأرض الزراعية تملكه الأسر الشريفة فى مساحات شاسعة و ١٦,٥٪ تملكه الكنيسة ، و ٣٢٪ تملكه الكومونات (المـــدن) أو الفلاحون . وتأخر نمو مليكة الفلاحين للأرض بفعل قانون وقف قديم يشترط وقف الأرض كاملة على الإبن الأكبر ويمنع رهن أى جزء منها أو بيعه . وكان ثلاثة أرباع الأرض خلال معظم هذا القرن فيما عدا إقليم

الماسك يفلحه مستأجرون يؤدون ضريبة على صورة إيجار ، أو رسوم ، أو خدمات ، أو عينا لملاك من الأشراف أو رجال الدين الذين ندر أن رأوهم ولما كانت الإيجارات تجنى حسب إنتاجية المزرعة ، فإن المستأجرين افتقدوا الحافز على الابتكار أو الاجتهاد[٢] . ودافع الملاك عن هذا النظام بالزعم بأن الهبوط المطرد فى قيمة العملة يكرههم على رفع الإيجارات لتتمشى مع الأسعار والتكاليف المتصاعدة . ثم أن ضريبة مبيعات فرضت على ضروريات الحياة كاللحم والنبيذ وزيت الزيتون والشموع والصابون كانت أثقل وطأة على الفقراء (الذين أنفقوا معظم دخلهم على الضروريات) وأخف وقعا على الأغنياء . وترتب على هذه الإجراءات ، وعلى الامتيازات الوراثية ، وعلى الفوارق الطبيعية فى القدرة البشرية ، أن تركزت الثروة فى القمة ، وران على القاع فقر كئيب اتصل جيلا بعد جيل ، تخففه وتسرى به التعزيات فوق الطبيعية .

وكانت طبقة النبلاء منقسمه إلى درجات من الشرف انقساما يملؤه التحاسد والتنابذ . ففى القمة (فى ١٧٨٧) ١١٩ من كبار النبلاء (Grandes de Espana) . وقد نحزر مبلغ ثرائهم من تقرير مبالغ فيه على الأرجح كتبه الرحالة البريطانى المعاصر جوزف تاونسند وذكر فيه « أن ثلاثة من كبار النبلاء — وهم دوق أوزونا ، ودوق ألبا ، ودوق مدينا سلى — يملكون إقليم الأندلس بجملته[٣] . وكان دخل دوق مدينا من مصايد أسماكه وحدها مليون ريال فى العام ، ودخل دوق أوزنا السنوى ٨,٤٠٠,٠٠٠ ريال . ودخل كونت أراندا قرابة ١,٦٠٠,٠٠٠ ريال فى السنة[١] . ويلى كبار النبلاء ٥٣٥ من أصحاب الألقاب titulos — وهم رجال منحهم الملك القابا وراثية بشرط أداء نصف دخلهم للتاج . ويلى هؤلاء الفرسان caballeros الذين يعينهم الملك فى عضوية مجزية فى أحدى طبقات أسبانيا الحربيه الأربع : وهى سنتياجو ، والقنطرة ، وكالاترافا ومونتيزا . أما أدنى النبلاء مرتبة فكانوا الـ ٤٠٠,٠٠٠ هيدلج hidalgo الذين يملكون مساحات متواضعه من الأرض ، والذين أعفوا من الخدمه العسكرية ومن

السجن للمدين ، وكان لهم الحق فى أن يلبسوا شعار النباله وأن يخاطبوا بلقب « المدون » . وكان بعضهم فقراء ، وبعضهم أنضم إلى المتسولين فى الشوارع . وكان معظم النبلاء يعيشون فى المدن ، ويعينون موظفى الإقاليم .

أما الكنيسة الأسبانية فقد أدعت الحق فى نصيب مريح من جملة الناتج القومى بوصفها الحارس الألهى للوضع الراهن . وقد قدر مصدر أسبانى موثوق أن دخلها السنوى بعد الضرائب يبلغ ١,١٠١,٧٥٣,٠٠٠ ريال ، ودخل الدولة يبلغ ١,٣٧١,٠٠٠,٠٠٠ ريال[٥] . وكان ثلث إيرادها يأتيها من الأرض ، ومبالغ طائله تجمعها من العشور وبواكير الثمار ، ومبالغ صغيرة من مراسيم العماد ، والزيجات ، والجنائز ، والقداديس على أرواح الموتى ، والحلل الديرية تباع للأتقياء الذين ظنوا أنهم أن ماتوا وعليهم هذه الأرواب فقد يتسللون إلى الجنه دون مساءلة . وأتى الرهبان المستجدون بمزيد من المال بلغ ٥٣,٠٠٠,٠٠٠ ريال . على أن أوساط القساوسه كانوا بالطبع فقراء لكثرة عددهم من جهة ، فقد كان فى أسبانيا ٩١,٢٥٨ من رجال الكهنوت ، منهم ١٦,٤٨١ كانوا قسسا » و ٢,٩٤٣ رهبانا يسوعيين[٦] . وفى ١٧٩٧ كان ستون ألف راهب وثلاثون ألف راهبة يعيشون فى ثلاثة الأف دير . وكان رئيس أساقفة أشبيلية وموظفوه البالغون ٢٣٥ مساعدا يتمتعون بدخل سنوى مقداره ستة ملايين ريال ، أما رئيس أساقفة طليطلة — وكان له ستمائة مساعد — فبلغ دخله تسعة ملايين ريال . وهنا ، كما فى إيطاليا والنمسا ، لم تثر ثروة رجال الدين أى احتجاج من الشعب ، فالكاتدرائيه من خلقهم ، وقد أحبوا أن يروها فى زينة بهية .

وقد ضرب تدينهم المثل والقدوة للعالم المسيحى . فلم يلق اللاهوت الكاثوليكى فى بقعة أخرى فى القرن الثانى عشر مثل هذا الإيمان الشامل به ، ولا شهدت الطقوس الكاثوليكية من هـذا الاحترام الشديد . ونافست الممارسات الدينية السعى وراء العيش ، ولعلها فاقت السعى وراء الجنس ، باعتبارها جزءا من صميم الحياه . وكان أفراد الشعب بما فيهم البغايا ، يرسمون علامة الصليب مراراً وتكراراً كل يوم . وفاقت عبادة العذراء عبادة المسيح

بكثير ، وانتشرت صورها وتماثيلها فى كل مكان ، وكان النساء يخطن الأرواب لتماثيلها فى شغف ، ويتوجن رأسها بالأزهار النضرة ، وفى أسبانيا أكثر من غيرها أرتفع صوت الشعب مطالبا بجعل ، « حملها غير الدنس » — أى خلوها من لوثة الخطيئة الأصلية — جزءا من العقيدة المحددة المشترطة. وكان الرجال يساوون النساء تمسكا بإهداب الدين . فكثير من الرجال ، كالنساء ، كانوا يختلفون إلى القداس يومياً . وكان الرجال من الطبقات الدنيا يجلدون أنفسهم فى بعض المواكب الدينيه (حتى حرم هذا الجلد فى ١٧٧٧) يحبال فيها عقد تنتهى بكرات من الشمع تحوى زجاجا محطما ، وزعموا أنهم يفعلون هذا برهانا على حبهم لله أو مريم أو امرأة ما ، ورأى بعضهم أن هذا القصد مفيد للصحه[٧] وأنه يهدىء من شبق إيروس .

وكانت المواكب الدينية كثيرة ، مثيرة ، غنية بالألوان ، وقد شكا ظريف من أنه لم يستطع أن يخطو فى مديد خطوة دون أن يصادف هذا المشهد المهيب ، وكان فى الأمتناع عن الركوع إذا مر الموكب مجازفة بالأعتقال أو الأعتداء . فحين قام أهل سرقسطة بثورة عام ١٧٦٦ وراحوا ينهبون ويسلبون ظهر موكب دينى على رأسه أسقف يحمل بين يديه القربان المقدس ، فكشف العصاة رؤوسهم وجثوا فى الشوارع ، فلما عبر الموكب استأنفوا سلب المدينة[٨] . وكانت كل مصالح الحكومه تشارك فى موكب « عيد القربان » العظيم ، يتقدمهم الملك أحيانا . وكانت مدن أسبانياً تجلل بالسواد طوال أسبوع الآلام ، والملاهى والمقاهى تغلق ، والكناتس تغص بالعابدين ، والمذابح الأضافية تقام فى الميادين العامة إستجابة لتدفق التقوى والورع . ففى أسبانياً كان المسيح ملكا ، ومريم ملكة ، والأحساس بالحضرة الألهية فى كل لحظة من لحظات اليقظه ، جزءا من صميم الحياة .

وزكت طائفتان دينيتان أكثر من غيرهما فى أسبانياً . فسيطر اليسوعيون على التعليم بفضل علمهم ولباقتهم فى الحديث وأصبحوا آباء الإعتراف للأسرة المالكة . أما الدومنكان فسيطروا على ديوان التفتيش ، ومع أن هذه المؤسسه كانت قد ودعت عصرها الذهبى منذ أمد بعيد ، فقد بقى لها

من القوة ما يكفى لأرهاب الشعب وتحدى الدولة . فلما ظهرت فلـــول لليهوديه بسبب تراخى البوربون قطع ديوان التفيش دابرهم بإحراقهم علنا ، وعلى مدى سبع سنوات (١٧٢٠ — ٢٧) أدان الديوان ٨٦٨ شخصا ، أتهم ٨٢٠ منهم بأنهم يبطنون اليهودية ، وأحرق ٧٥ ، وزج غيرهم فى سفن تشغيل العبيد أو أكتفى بجلدهم[٩] . وفى ١٧٢٢ أظهر فليب الخامس تبنية لأساليب الحياة الأسبانية إذ ترأس مهرجانا فخما لاحراق المهرطقين ، أحرق فيه تسعه منهم أحتفالا بمقدم أميرة فرنسية إلى مدريد[١٠] . أما خلفه فرديناند السادس فقد أبدى روحا أكثر إعتدالا ، ففى عهده (١٧٤٦ — ٥٩) أحرق عشرة « فقط » أحياء ، وكلهم من اليهود « المرتدين[١١] » .

ومارس ديوان التفتيش رقابة خانقة على كل ضروب النشر . وقد قدر راهب دومنيكى أن المطبوع فى أسبانيا خلال القرن الثانى عشر كان أقل من المطبوع فى القرن السادس عشر [١٢] . وكان أكثر الكتب دينيا ، واحبها الشعب بوصفها هذا . وكانت الطبقات الدنيا أمية ، ولم تشعر بحاجة للقراءة أو الكتابة . وكانت المدارس فى قبضة رجال الدين ، ولكن ألافاً من الأبرشيات كانت خلوا من المدارس . أما الجامعات الأسبانية التى كانت يوما ما جامعات عظيمة فقد تخلفت تخلفا شديداً عن نظيراتها فى إيطاليا أو فرنسا أو انجلترة أو المانيا فى كل ناحية إلا اللاهوت التقليدى . وكانت مدارس الطب فقيرة ، ردئية الإعداد بالأساتذة ، ناقصة الأجهزة ، وأعتمد العلاج على الحجامة ، وأعطاء المسهلات ، والأستعانة ببركات القديسين ، والصلاة . وكان الأطباء الاسبان خطرا على حياة الناس . وكان العلم علم العصر الوسيط ، والتاريخ أساطير ، وزكت الخرافه وكثرت النذر والمعجزات . وظـــل الإيمان بالسحر حيا إلى نهاية القرن ، وظهر بين الأهوال التى صورها الرسام جويا .

تلك كانت أسبانيا التى قدم البوربون من فرنسا ليحكموها .

٢ — فليب الخامس ١٧٠٠ — ٤٦

كان فليب الخامس (Felipe Quinto) رجلا طيبا فى حدود فلسفة حياته التى ضيقها تعليمة . كان إبنا أصغر للدوفان ، فدرب على التواضع ، والتقوى ، والطاعة ، فلم يتغلب قط على هذه الفضائل إلى حد يكفى للتصدى لنصف قرن من التحديات فى الحكم والحرب . وأفضت به تقواه إلى أن يتقبل فى أسبانيا ظلامية دينية كانت تحتضر فى فرنسا ، وجعلته سهولة إنقياده مطواعا لوزرائه وزوجاته .

وكانت ماريا لويزا جابرييلا ، أبنة فكتور أماديوس الثانى ملك سافوى ، لا تعدو الثالثة عشرة يوم تزوجت فليب (١٧٠١) ، ولكنها كانت رغم حداثتها حاذقه لمكر النساء وكيدهن ، وإستطاعت بجمالها وحيويتها وبغضباتها ودموعها ، أن تخضع الملك فيستسلم بعد أرهاق ، بينما تدير هى وكبيرة وصيفاتها سياسة وطنهما الجديد . وكانت هذه الوصيفة — مارى آن دلا تريموال ، أميرة أورسان ، والأرمله الفرنسيه لنبيل أسبانى كبير ، قد أعانت الملكة الصبية على الزواج والقبض على السلطة . ومكنها طموحها المزوج باللباقة من أن تصبح قوة وراء العرش خلال عشرة أعوام . وما كان فى أستطاعتها أن تعتمد على الجمال لأنها كانت فى التاسعه والخمسين فى ١٧٠١ ، ولكنها إمدت الملكة بما تفتقر إليه من معرفة ودهاء ، وبعد عام ١٧٠٥ كانت تقرر السياسة . وفى ١٧١٤ ماتت ماريا لويزا فى السادسه والعشرين ، وتردى فليب الذى تعلم أن يحبها حباً صادقا فى أكتئاب مرضى . ورأت مدام ديزورسان أن تنقذ سلطانها بترتيب زواجه من إيزابيلا (اليزابيث) فارنيزى ، أبنة أودواردو الثانى دوق بارما وبياسنزا . وذهبت للقاء الملكة الجديدة عند الحدود الأسبانية ، ولكن إيزابيللا أمرتها فى إقتضاب أن ترحل عن أسبانيا ، فاعتزلت فى روما وماتت بعد ثمانى سنوات مغمورة منسية رغم ثرائها .

لم تعترف إيزابيللا بأن النهضة الأوربية قد ولت ، فقد وهبت كل قوة

الإرادة ، وشدة الذكاء ، وحدة الطبع ، واحتقار الوساوس الذى تميزت به النساء كما تميز الرجال الذين هيمنوا على إيطاليا القرن السادس عشر . وقد وجدت فى فليب رجلا عاجزا عن الحسم ؛ عاجزا عن النوم منفردا ، ومن ثم أصبح فراشها عرشها الذى تحكم منه أمة ، وتدير جيوشا ، وتظفر بامارات إيطالية . ولم تكن قد عرفت أى شىء تقريباً عن أسبانيا . ولم تألف قط الخلق الاسبانى ولكنها درست ذلك الخلق ، ونجحت فى التعرف على حاجات البلد ؛ وادهش الملك أن يجدها لا تقل عن وزرائه إطلاعا وسعة حيلة .

وكان فليب فى سنوات حكمه الأولى قد استخدم جان أورى وغيره من المساعدين الفرنسيين لأعادة تنظيم الحكومه على الأسس التى وضعها لويس الرابع عشر : إدارة ومالية ممركزتان مراقبتان ، مع بيروقراطية مدربه ونظار إقليميين ؛ وكلهم خاضعون لسلطة المجلس الملكى التشريعية والقضائية والتنفيذيه ؛ وأسمه هنا « مجلس تشتاله » Consejo de Castilla ؛ فقل الفساد ؛ وحد من الاسراف — إلا فى عمليات البناء الخاصه بالملك . ثم خلف هؤلاء الوزراء الفرنسيين فى ١٧١٤ إيطالى كفء طموح هوالاباتى جوليو البيرونى ، الذى جعل نشاطه الأسبانيين يرتعدون . وكان أبنا لبستانى فى بياتشنزا ، وصل إلى أسبانيا بوصفه سكرتيرا لدوق فندوم . وكان أول من إقترح إيزابيللا فارنيزى زوجة ثانية لفليب . فيسرب وصوله إلى السلطه سرفانا بصنيعه . وقد وفقا معا فى اقصاء الملك عن شئون الدولة . وعن أى مشورة غير مشورتهما . وخططا معاً لبناء قوات أسبانيا المسلحه واستخدامها لطرد النمساويين من إيطاليا وأستعادة النفوذ الأسبانى فى نابلى وميلان ، وإقامة عروش للأدواق يزينها يوما ما أبناء إيزابيللا البعيدة النظر .

وطلب البيرونى خمس سنين للاستعداد ، فأحل فى المناصب الرئيسية رجالا أكفاء من الطبقة الوسطى محل الكسالى من حملة الألقاب ، وفرض الضرائب على الاكليروس وسجن القساوسة المتمردين (١٣) ، وخرد السفن البالية وبنى خيراً منها ، وأقام القلاع والترسانات على طول السواحل

والحدود ، وأعان الصناعة بالمال ، وشق الطرق ، وزاد من سرعة المواصلات وألغى ضرائب المبيعات ومكس المرور . وقد أنذر السفير البريطانى فى مدريد حكومته بأن أسبانيا لن تنقضى عليها بضع سنين أخر من أمثال هذة الخطى حتى تغدو خطرا على غيرها من دول أوربا(١٤) . ورغبة فى تهدئة هذه المخاوف تظاهر البيرونى بأنه يجند القوات ليعين بها البندقية والبابوية على الترك . والواقع أنه أرسل ست سفن كبيرة إلى كلمنت الحادى عشر ، الذى كافأه بقبعة الكردينالة الحمراء (١٧١٧) . كتب فولتير « أن الملكية الأسبانية قد استأنفت حياة جديدة تحت حكم الكردينال البيرونى(١٥) » .

ومنح كل شىء إلا الوقت . كان يرجو أن يكسب رضاء الفرنسيين والانجليز عن الأهداف الأسبانية فى ايطاليا ، وعرض تنازلات قيمة مقابل هذا الرضا ، ولكن الملك المهمل أفسد هذه المناورات بكشفه عن رغبته فى الحلول محل فليب أورليان حاكما لفرنسا . وانقلب هذا على فليب ، وانضم إلى انجلترا والاقاليم المتحدة فى ميثاق للحفاظ على الترتيبات الاقليمية التى حددتها معاهدة أوترخت . وانتهكت النمسا تلك المعاهدة باكراهها سافوى على اعطائها صقلية مقابل سردانيا . واحتج البيرونى بأن هذا يضع عبر البحر المتوسط دولة ما زال رئيسها يطالب بتاج أسبانيا . ولعن تطور الأحداث بهذه العجلة على غير ما يبغى ثم أذعن للدخول حرب قبل الأوان . واستولى أسطوله الوليد على بلرمو (١٧١٨) . وسرعان ما أخضع جيشه صقلية كلها لسلطة أسبانيا وهنا انضمت النمسا إلى انجلتره وفرنسا وهولنده فى حلف رباعى ضد أسبانيا . وفى ١١ أغسطس ١٧١٨ دمر أسطول بريطانى بقيادة الأميرال بنج الأسطول الأسبانى قبالة ساحل صقلية ، وحبس خيرة جنود أسبانيا فى تلك الجزيرة بينما غزت الجيوش الفرنسية أسبانيا . وطلب فليب وايزابيللا الصلح ، فأجيب الطلب شريطة أن ينفى البيرونى . نفر إلى جنوه (١٧١٩) ، وشق طريقه متخفيا إلى روما عبر لومبارديا التى يملكها النمساويون ، وشارك فى مجمع

الكراولة الذى انتخب البابا انوسقت الثالث عشر ، ومات عام ١٧٥٢ وقد بلغ الثامنة والثمانين . وفى ١٧ فبراير ١٧٢٠ وقع مبعوث أسبانى بلندن معاهدة نزل فيها فليب عن كل حق يدعيه فى عرش فرنسا ، ونزلت أسبانيا عن صقلية للنمسا ، ووعدت انجلتره برد جبل طارق إلى أسبانيا ، وتعهدت الحلفاء بأن يكون لنسل ايزابيللا الحق فى وراثة بارما وتوسكانيا .

وفى مجال السياسة الدولية سرعان ما ينقلب الحلفاء أعداء ، ويصبح الخصوم أصدقاء رسمياً . ودعما للسلام مع فرنسا ، كان فليب قد خطب ابنته ماريا أنا فكتوريا التى لم تسلخ من عمرها سوى عامين، للويس الخامس عشر فى ١٧٢١ ، وأرسل بها إلى فرنسا (١٧٢٢) وسط دهشة الجمع . ولكن فى ١٧٢٥ ردتها فرنسا لعل لويس أن يتزوج امرأة تستطيع الاضطلاع فورا بمهمة انجاب وريث له . ورأت أسبانيا فى هذا الرد اهانة ، فتحالفت مع النمسا ، ووعد الإمبراطور شارل السادس بمساعدة أسبانيا على استعادة جبل طارق ، فلما حاول جيش أسبانى الإستيلاء على ذلك المعقل لم يأت العون من النمسا ؛ وفشلت المحاولة ، ولم تصطلح أسبانيا مع انجلتره وحسب ، بل ردت لهـــا احتكار الازينتو Asiento الذى يبيح لها بيع العبيد للمستعمرات الأسبانية ، ومقابل هذا تعهدت بريطانيا بأن تجلس الدون كارلوس ، ابن ايزابيللا ، على عرش دوقية بارما . وفى ١٧٣١ اتجه كارلوس وستة آلاف أسبانى إلى ايطاليا فى حراسة أسطول انجليزى . ونزلت النمسا عن بارما وبياتشنزا لكارلوس رغبة فى الحصول على تأييد بريطانيا وأسبانيا لها فى ارتقاء ماريا تريزا للعرش الامبراطورى. وفى ١٧٣٤ رفع كارلوس نفسه إلى عرش نابلى . وهكذا اكتمل نصر ايزابيللا .

على أن فليب أصابته نوبة من الأكتئاب أخذت بعد عام ١٧٣٦ تنحدر أحيانا إلى درك الجنون . فقبع فى ركن من حجرته ، ظانا أن كل الداخلين عليه ينوون قتله ، وعافت نفسه الأكل مخافة أن يدس له السم فيه . وظل

ردحا طويلا يأبى أن يبرح فراشة أو يحلق لحيته . وجربت إيزابيللا عشرات الوسائل لشفائه أو تهدئته ، ولكنها أخفقت كلها إلا واحدة . ففى ١٧٣٧ أقنعت فارنيللى بأساليب الملاطفة والتملق أن يجىء إلى أسبانيا . وذات ليلة ، فى جناح ملاصق لجناح الملك ، رتبت حفلا موسيقيا غنى فيه « الخصى » العظيم لحنين من تأليف هاسى . ونهض فليب من فراشة لينظر خلال باب ويرى أى قوة أستطاعت أن تشدو بهذه الأصوات الساحرة . وجاءته ايزابيللا بفارينللى ، فأثنى عليه الملك وعانقه وأمره بأن يطلب ما شاء من مكافأة فتوهب له مهما غلت . وكانت الملكه قد أوصت المغنى بما يجيب ، فلم يطلب إلا أن يسمح الملك بأن تحلق لحيته وأن يرتدى ثيابه ويحضر المجلس الملكى . ووافق الملك وخفت مخاوفه . وبدا أنه شفى كأنما بمعجزة . ولكن حين أقبل المساء التالى أرسل فى طلب فارنيللى ورجاه أن يغنى هاتين الأغنيتين ذاتهما ثانية ، إذ لم يكن فى الأمكان تهدئته لينام إلا بهذه الطريقة . وهكذا أستمرت الحال ليلة إثر ليلة طوال عشر سنين . وكان أجر فارنيللى ٢٠٠,٠٠٠ ريال فى العام ، ولكن لم يسمح له بالغناء إلا فى البلاط . وتقبل هو الشرط شاكرا ، ومع أن نفوذه على الملك كان أقوى من نفوذ أى من وزرائه ؛ فأنه لم يستغلة وأستعمله دائماً للخير ؛ وظل بريئا من روح الرشوة وأكتسب أعجاب الجميع[١٦] .

وفى ١٧٤٦ أمر فليب أن يقام ١٠٠,٠٠٠ قداس لخلاص نفسه . فإذا لم يكن ثمة حاجة لهذا العدد الكبير ليدخل به الجنه فليوهب الفائض للنفوس المسكينة التى لم يتح لها مثل هذا الأستعداد[١٧] . فى ذلك العام قضى فليب نحبه .

٣ — فرديناند السادس

١٧٤٦ — ٥٩

وخلفه على العرش ثانى أبنائه من زوجته الأولى ، فأعطى أسبانيا ثلاثة عشر عاماً من الحكم الشافى من عللها . وعمرت إيزابيللا حتى سنة ١٧٦٦ ،

ولقيت من ابن زوجها معاملة رقيقة مجاملة ، ولكنها فقدت سلطانها على التأثير فى الأحداث . وأصبحت زوجة فرديناند ، ماريا بربارة ، تلميذة سكارلاتى ، هى المرأة التى تقف وراء العرش . ومع أنها كانت مفرطة الولع بالطعام والمال ، فإنها كانت روحاً أرق من إيزابيلا ، وبذلت أكثر همتها لتشجيع الموسيقى والفن . وواصل فارنيللى غناءه للحكام الجدد ، ولم يستطع هاريسكورد سكارلاتى أن ينافسه . وعمل الملك والملكة على إنهاء حرب الوراثة النمساوية ، فقبلا معاهدة إكس — لا — شابل (١٧٤٨) ، مع إنها أعطت توسكانيا للنمسا ، وبعد عام أنهيا اتفاق الازينتو الذى عمر ١٣٦ سنة بدفع ١٠٠,٠٠٠ جنيه لشركة بحر الجنوب تعويضاً عن خسارة امتيازاتها فى تجارة الرقيق .

كان فرديناند رجلا حسن النية ، لطيفاً أميناً ، ولكنه ورث جسدا رقيقاً وكان معرضاً لنوبات من الغضب كان يخجل منها خجلا مؤلما . [١٨] وحمله الوعى بعيوبه على ترك الحكم لوزيرين قديرين — دون خوزيه دى كارفاخال وزينون دى سومو ديفللا ، مركيز انسناداً . وحسن انسناداً أساليب الزراعة ، وأعان بالمال التعدين والصناعة ، وشق الطرق والقنوات ، وألغى المكوس الداخلية ، وأعاد بناء البحرية واستبدل بضريبة البيوع البغيضة ضريبة على الدخل والممتلكات ، ونظم المالية من جديد ، وحطم عزلة أسبانيا الفكرية بإيفاده البعوث من الطلبة إلى الخارج . ويرجع بعض الفضل إلى دبلوماسية انسناداً فى إبرام اتفاق مع البابوية (١٧٥٣) احتفظ للملك بحق فرض الضرائب على الأملاك الكنسية وتعيين الأساقفة للكراسى الأسبانية . وقد حد من سلطان الكنيسة ، وأخضع ديوان التفتيش ، وألغيت الاحتفالات العلنية بإحراق المهرطقين .

واختلف الوزيران فى سياستهما الخارجية . فأما كارفاخال فقد أثر فيه لطف السفير البريطانى المخلص ، السير بنجامن كين ، فاستن سياسة مؤيدة للبريطانيين مسالمة لهم ، وأما اسنادا فقد حابى فرنسا ، وتحرك نحو محاربة انجلترة . وطال صبر فرديناند عليه لأنه قدر نشاطه وكفايته ، ولكنه أقاله

فى النهاية . وبينما كانت كل أوربا تقريباً تتردى فى سنوات سبع من الحرب، منح فرديناند شعبه فترة من السلام والرخاء أطول مما حظيت به أسبانيا منذ أيام فليب الثانى .

وفى ١٧٥٨ ماتت ماريا بربارة .وكان الملك يحبها حباً يوحى بأن السياسة لم يكن لها دخل فى زواجهما ، ومن ثم اعترته حالة من الاكتئاب وتشعث الشعر وإطلاق اللحية ذكرت الناس باكتئاب أبيه من قبل ، وأصابته هو الآخر لوثة فى آخر سنة من عمره . وفى أخريات أيامه كان يأبى الذهاب إلى فراشه مخافة ألا ينهض منه أبدا . ومات فى كرسيه فى ١٠ أغسطس ١٧٥٩ وبكى الجميع الملكين الحبيبين لأن حكمهما كان بركة نـــدر أن حظيت بها أسبانيا .

٤ — التنوير يدخل أسبانيا

قصة التنوير فى أسبانيا مثال لقوة عرضة للمقاومة تصطدم بجسم ثابت لا يقبل الحركة . فالخلق الأسبانى ، ووفاؤه لإيمانه الوسيط وفاء كتبه بالدم ، كان يصد كل رياح الهرطقة أو الشك عاجلا أو آجلا ، ويرفض كل دخيل من الزى أو العادات أو الاقتصاد . ولم يحبذ الفكر الدخيل غير قوة اقتصادية واحدة — هى التجار الأسبان الذين كانوا يتعاملون مع الأجانب كل يوم ، ويعرفون أى قوة وثراء حققهما ونظراؤهم فى انجلترة وفرنسا . وكانوا راغبين فى استيراد الأفكار إذا استطاعت أن تضعف من السلطة التى ورثها النبلاء والأكليروس على أرض أسبانيا وحياتها وعقلها . وقد علموا أن الدين فقد سلطانه فى انجلترة ، وسمع بعضهم بنيوتن ولوك ، لابـــل أن جبون قدر له أن يجد بعض من يقرؤنه فى أسبانيا (١٩) .

وبالطبع هبت أقوى رياح التنوير من فرنسا . وكان النبلاء الفرنسيون الذين تبعوا فليب الخامس إلى مدريد قد مستهم الزندقة التى أخفت رأسها أيام لويس الرابع عشر ، ولكنها استشرت أيام الوصاية . وفى ١٧١٤ أسس

بعض الدارسين الأكاديمية الملكية الأسبانية محاكاة للأكاديمية الفرنسية ؛ وسرعان ما بدأت وضع معجم لغوى ؛ وفى ١٧٣٧ أضطلعت صحيفة « دياريو دى لوس لتراتوس دى أسبانيا » بمنافسة « الجورنال دى سافان » الفرنسية . وكان الدوق ألبا الذى أشرف على الأكاديمية الملكية عشرين عاماً (١٧٥٦ — ٧٦) شديد الأعجاب بجان — جاك روسو [٢٠] . وفى ١٧٧٣ — أكتتب بثمانية جنيهات ذهبية (لوى دور) لتمثال فولتير الذى كان يصنعه بيجال . كتب إلى دالامبير يقول « أننى وقد قضى على بتثقيف عقلى سراً أغتنم هذه الفرصه للشهادة علانية بعرفانى وإعجابى بالرجل العظيم الذى كان أول من دلنى على الطريق [٢١] » .

وحظى كتاب روسو « إميل » بإعلان مجانى حين أحرق فى أحتفال رسمى بكنيسة من كنائس مدريد (١٧٦٥) [٢٢] . وعاد شباب من الأسبان الذين عرفوا باريس كالمركيز دى مورا الذى عشق جولى دلسبيناس إلى أسبانيا يحملون شيئاً من آثار الشكوكية التى التقوا بها فى الصالونات . وهربت إلى أسبانيا نسخ من أعمال فولتير أوديدرو أو رينال ؛ فأيقظت بعض العقول المجددة . وكتب صحفى أسبانى فى ١٧٦٣ يقول « كان من أثر الكتب المؤذية الكثيرة التى راجت بين الناس ؛ ككتب فولتير وروسو وهلفتيوس ؛ أن كثر فتور الإيمان فى هذا البلد [٢٣] » . وكان بابلو أولافيدى يجهر بالأفكار الفولتيرية فى صالونه بمدريد (حوالى ١٧٦٦) [٢٤] . وحوت رفوف « الجمعية الاقتصادية لأصدقاء السلام » أعمالا لفولتير رورسو وبيل ودالامبير ومونتسكيو وهوبز ولوك وهيوم [٢٥] . وذكر الأبيه كليمان الذى جاب أرجاء أسبانيا عام ١٧٦٨ أنتشار اللامبالاة بالدين أنتشارا واسعا ، لا بل الكفر بالعقيدة ، المستتر وراء مراعاة الطقوس الكاثوليكية فى الظاهر [٢٦] . وقد أبلغ ديوان التفتيش فى ١٧٧٨ أن كبار موظفى البلاط يقرءون لجماعة الفلاسفة الفرنسيين [٢٧] .

وكان من الأهمية بمكان للتاريخ الأسبانى أن يصبح بدرو أباركا ، كونت أراندا ، خلال رحلة قام بها فى فرنسا ، صديقا لفولتير . وقد تحكم

على علاقاته من نشاطه اللاحق سفيراً لأسبانيا لدى فرساي ، وقد اختلط فى غير تحرج بالموسوعيين فى باريس وقامت بينه وبين دالا مبير صداقة ملؤها الأعجاب به ، وعبر فرنسا ليزور فولتير فى فرنيه . وكان يصرح بولائه للكنيسة فى أسبانيا ، ولكنه هو الذى أقنع شارل الثالث بطرد اليسوعيين ، وبأرشاده انضم شارل إلى صفوف « المستبدين المستنيرين » الذين كان يتطلع إليهم جماعة الفلاسفة باعتبارهم خير معوان لهم فى نشر التعليم والحرية والعقلانية .

٥ — شارل الثالث ١٧٥٩ — ٨٨

١ — الحكومة الجديدة

حين وصل من نابلى كان يناهز الثالثة والأربعين . ورحب به الجميع إلا اليسوعيين [٢٨] الذين ساءهم بيع أسبانيا لمستوطناتهم فى برجواى إلى البرتغال (١٧٥٠) ، وفيما عدا هذا كسب جميع القلوب بإعفاء الناس من الضرائب المتأخرة ، ورد بعض الامتيازات التى فقدتها الأقاليم فى ظل سياسة المركزية التى انتهجها فليب الخامس . وقد جلل موت زوجته ماريا أماليا بالحزن سنة حكمه الأولى لأسبانيا . ولم يتزوج بعدها قط وإنه لمما يشرف آل بوربون الأسبان فى القرن الثامن عشر أنهم ضربوا للملوك أوربا المثل فى الوفاء لأزواجهم والثبات على حبهم .

وقد رسم دبلوماسى بريطانى صورة بريطانية لشارل الذى كانت له مواجهات مع الانجليز فى نابلى .

« للملك مظهر غريب سواء شخصه أو زيه . فهو ضئيل القامة ولون بشرته شبيه بلون المحنة ولم يفصل له سترة طوال هذه السنين الثلاثين ، لذلك يبدو فى سترته وكأنها الزكيبة ، وصدريته وسراويل ركوبه من الجلد عادة ، وعلى ساقيه طماق يقيهما من البلل . وهو يخرج للرياضة كل يوم من أيام السنة غير عابىء بمطر أو ريح [٢٩] .

ولكن إيرل برستول — أردف فى ١٧٦١ ، « إن للملك الكاثوليكى مواهب جيدة ، وذاكرة مواتية ، وسيطرة غير عادية على نفسه فى جميع المناسبات . وقد بات يتشكك فى الناس لكثرة ما خدعوه . وهو يفضل دائماً أن ينال موافقة الآخرين على رأيه باللين ، وله من طول الأناة ما يجعله ينصح محدثه المرة بعد المرة دون أن يستعمل سلطته . ومع ذلك فرغم سيماء اللطف العظيم البادى عليه استطاع أن يبث الرهبة فى قلوب وزرائه وحاشيته . » (٣٠)

ولم يكن فى تقواه الشخصية ما ينذر بأنه سيهاجم اليسوعيين أو يضطلع بالإصلاحات الدينية . كان يختلف إلى القداس كل يوم . وقد أدهش عدوا إنجليزياً « وفاؤه الأمين العنيد بكل معاهداته ومبادئه وإرتباطاته » (٣١) وكان يخصص جزءاً كبيراً من كل يوم من أيام الأسبوع (عدا الأحد) لشئون الحكم . يستقيظ فى السادسة ، ويزور أبناؤه ، ويفطر ، ويعكف على العمل من الثامنة إلى الحادية عشرة ، ويجتمع بوزرائه ، ويستقبل كبار القوم ويتناول غداءه مع غيره ، ويخصص عدة ساعات للصيد ، ويتعشى فى التاسعة والنصف ، ويطعم كلابه ، ويتلو صلواته ، ثم يمضى إلى فراشه . ولعل الصيد كان وقاء صحيا قصـــد به أن يصرف عنه الاكتئاب الموروث فى الأسرة .

وبدأ ببعض الأخطاء الخطيرة . ذلك أنه لجهله بأسبانيا التى لم يرها منذ كان فى السادسة عشرة اتخذ اثنين من الايطاليين كانا قد أخلصا فى خدمته بنابلس مساعدين أثيرين لديه : المركيز دى جريمالدى فى السياسة الخارجية ، والمركيز دى سكللاتشى فى الشئون الداخلية .

وقد وصف ايرل برستول سكللاتشى هذا بأنه « غير ذكى . أنه مولع بالعمل ولا يشكو أبدا من كثرته رغم تنوع إدارات الحكومة التى تتركز فيه . . . وأعتقد أنه غير قابل للارتشاء ، ولكننى لا أريد أن أكون مسئولا بهذا القدر عن زوجته »(٣٢) ولم يحب جرائم مدريد ولا روائحها الخبيثة ولا ظلمتها : ومن ثم فقد نظم لها شرطة نشيطة وفرقة لتنظيف شوارعها ، وأنار

العاصمة بخمسة آلاف مصباح . وأباح الاحتكارات لتزويد المدينة بالزيت والخبز وغيرهما من الضروريات . وحدث أن الجفاف رفع الأسعار ، فطالبت الجماهير برأس سكللاتشى . وقد أغضب رجال الدين بلوائح حدت من امتيازاتهم وسلطتهم . وفقد المئات من المؤيدين حين صادر الأسلحة المخبأة . وأخيرا أثار ثائرة الشعب بمحاولته تغيير زى الشعب . فقد أقنع الملك بأن العباءة أو الكاب الطويل الذى يخفى البدن والقبعة العريضة ذات الحافة المقلوبة التى تخفى كثيرا من الوجه ، يسهلان إخفاء السلاح ويعوقان الشرطة عن التعرف على المجرمين . ومن ثم حظرت سلسلة متعاقبة من المراسيم الملكية الكاب والقبعة ، وزود رجال الضبط بالمقصات الكبيرة يقصون بها العباءات المخالفة حتى يصلوا بها إلى الطول القانونى (٣٣) . وكان فى هذا من التحكم فوق ما يطيقه المدريديون الأباة . فثاروا فى أحد الشعانين ، ٢٣ مارس ١٧٦٦ ، واستولوا على مخازن الذخيرة ، وأطلقوا السجناء ، وتغلبوا على الجنود والشرطة ، وهاجموا بيت سكللاتشى ، وحصبوا جريمالدى ، وقتلوا الحرس الولونى الذين يحرسون القصر الملكى ، وجابوا الشوارع يرفعون رءوس هؤلاء الدخلاء الممقوتين على الرماح متوجة بقبعات عريضة الحواف . وظل الرعاع يومين يواصلون التقتيل والنهب . وهنا أذعن شارل ، وألغى المراسيم ، وأعاد سكللاتشى إلى إيطاليا محروسا . وكان فى غضون ذلك قد اكتشف مواهب الكونت أراندا ، وعينه رئيساً لمجلس قشتاله . فجعل أراندا العباءة والصمبريرة Sombrero أى القبعة العريضة الحافة الزى الرسمى للبلاد . وكان فى هذا المعنى الجديد المتضمن ما زهد الناس فى الزى القديم ، ومن ثم اتخذ معظم أهل مدريد الزى الفرنسى .

كان أراندا سليل أسرة عريقة غنية فى أراجون . رأيناه يتشرب التنوير فى فرنسا ، كذلك ذهب إلى بروسيا حيث درس التنظيم العسكرى ثم عاد إلى أسبانيا متشوقا إلى العمل على أن يصل وطنه إلى مستوى تلك الدول الشمالية . وأفرط أصحابه الموسوعيون فى الجهر باغتباطهم لتقلده السلطة ، وأحزنه أنهم بذلك زادوا مهمته صعوبة ، (٣٤) وود لو أنهم درسوا

الديلوماسية من قبل . وقد عرف الدبلوماسية السياسية بأنها فن « اعادة تنظيم قوة مختلف السلطات ، ومواردها ، ومصالحها ، وحقوقها ، ومخاوفها وآمالها ، حتى إذا سمحت المناسبة استطعنا أن نهدئ من هذه القوى ، أو نفرق بينها ، أو نهزمها أو نتحالف معها ، وذلك رهن بكيفية خدمتها لمصالحنا وزيادتها لأمننا » (٣٥) .

وكان الملك فى حالة نفسية مواتيه لإصلاحات الكنيسة لتوجسه من أن الاكليروس شجعوا الثورة على سكللاتشى سراً (٣٦). وكان قد أذن للمطبعة الحكومية فى أن تطبع عام ١٧٦٥ مقالا غفـــلا من اسم الكاتب عنوانه Tratado de la regalia de l'amortizaction.
تشكك فى حق الكنيسة فى جمع الثروة العقارية ، وزعم أن الكنيسة ينبغى أن تكون خاضعة للدولة فى جميع الأمور الزمنية .وكان المؤلف هو كونديه بدرو رودريجز دى كومبومانيس ، وكان عضواً فى مجلس قشتالة . وكان شارل قد أصدر عام ١٧٦١ أمراً يشترط موافقة الملك على نشر الأوامر أو الرسائل البابوية فى أسبانيا ، وفى تاريخ لاحق ألغى هذا الأمر . ولكنه عاد فجدده فى ١٧٦٨ . وأيد الآن أراندا وكومبومانيس فى سلسلة من الإصلاحات الدينية شكلت من جديد وجه أسبانيا الفكرى طوال جيل مثير .

٢ — الإصلاح الدينى الأسبانى

لم يكن فى نية المصلحين الأسبان أن يقضوا على الكاثوليكية فى أسبانيا — ربما باستثناء أراندا . وكانت الحروب الطويلة التى خاضتها البلاد لطرد العرب (كالكفاح الطويل لتحرير إيرلنده) قد جعلت الكاثوليكية جزءاً من الوطنية وكثفتها إلى درجة إحالتها إلى إيمان قدسته تضحيات الأمة تقديساً لا يتيح التحدى الناجح أو التغيير الجذرى. وكان أمل المصلحين أن يخضعوا الكنيسة لإشراف الدولة ، وأن يحرروا عقل أسبانيا من رهبة محكمة التفتيش . وقد بدأوا بمهاجمة اليسوعيين .

كانت جماعة اليسوعيين قد ولدت بأسبانيا فى عقل اغناطيوس لويولا

وتجاربه ، وكان نفر من أعظم قادتها من أسبانا . وكما حدث فى البرتغال ، وفرنسا ، وإيطاليا ، والنمسا اضطلعت الجماعة بالتعليم الثانوى ، وزودت الملوك والملكات بآباء الاعتراف ، وشاركت فى تشكيل السياسات الملكية . وقد أثار سلطانها المتسع غيرة الأكليروس الكاثوليكى غير الرهبانى ، وأحياناً عداءه .وكان بعض هؤلاء يؤمنون بأن سلطة المجامع المسكونية تعلو على سلطة البابوات ، أما اليسوعيين فقد دافعوا عن سمو سلطة البابوات على سلطة المجامع والملوك . وشكا رجال الأعمال الأسبان من أن اليسوعيين المشتغلين بتجارة المستعمرات يبيعون بأسعار أقل من التجار المحترفين بفضل مايتمتعون به من إعفاءات كنسية من الضرائب ، وقرروا أن هذا يقلل من الإيرادات الملكية . وآمن شارل بأن اليسوعيين مازالوا يشجعون مقاومة هنود براجواى لأوامر الحكومة الأسبانية (٣٧) ؛ وروعه أن يطلعه أراندا وكامبومانيس وغيرهما على خطابات أدعوا أنهم وجدوها بين رسائل اليسوعيين ، وقد صرح أحد هذه الخطابات الذين زعموا أن كاتبه هو الأب ريكي قائدالطائفة اليسوعية ؛ بأن شارل ابن غير شرعى ويجب أن يحل محله أخوه لويز . وقد رفض الكاثوليك وغير المؤمنين على السواء صحة هذه الخطابات (٣٩) ، ولكن شارل ظنها صحيحة وانتهى إلى أن اليسوعيين يأتمرون لخلعه ، وربما لقتله(٤٠). ولحظ أن محاولة — زعموا أن اليسوعيين كانوا ضالعين فيها — بذلت لاغتيال يوسف الأول ملك البرتغال (١٧٥٨)، فصحت نيته على أن يحذو حذو يوسف ويطرد الطائفة من مملكته .

وحذره كامبومانيس من أن خطوة كهذه لن يتاح لهـــا النجاح إلا بالإستعدادات المستورة تتبعها ضربه فجائيه مدبرة ، وإلا إستطاع اليسوعين الذين كانوا يحظون بتبجيل الشعب أن يثيروا ضجه مؤذية فى الأمه وممتلكاتها جميعا . وعملا بأقتراح أراندا أرسلت رسائل مختومة مهورة بتوقيع الملك فى مطلع عام ١٧٦٧ إلى الموظفين فى جميع أرجاء الإمبراطورية مشفوعة بالأمر بعدم فضها إلا فى ٣١ مارس فى أسبانيا ، وفى ٢ أبريل فى المستعمرات ،

وألا كان الموت عقاب المخالفين . وفى ٣١ مارس أستيقظ اليسوعيون الأسبان ليجدوا بيوتهم ومدارسهم يطوقها الجنود ، ويجدوا أنفسهم معتقلين. وأمروا بالرحيل فى هدوء ، غير مصطحبين سوى ما يطيقون حمله ، أما سائر ممتلكات اليسوعين فقد صادرتها الدولة . ومنح كل مبعد معاشا صغيرا يوقف أن عارض أى يسوعى فى طرده . ثم أخذوا فى عربات تحت الحراسه العسكرية إلى أقرب ميناء وأركبوا السفن إلى إيطاليا . وبعث شارل بكلمة إلى البابا كلمنت الثالث عشر يخبره أنه « ينقلهم إلى الأراضى الكنسية ليظلوا تحت أشراف قد استه الحكيم العاجل . . . . وأنى أرجو من قد استكم إلا تعتبروا هذا القرار إلا احتياطا مدنيا لا غنى عنه ، لم أتخذه إلا بعد البحث الناضج والتفكير العميق[٤١] » .

فلما حاولت أولى السفن التى كانت تحمل ستمائة من اليسوعيين ، أن تنزلهم فى تشيفيتافكيا ، رفض الكردينال توريجيانى ، السكرتير البابوى ، السماح لهم بالرسو محتجا بأن إيطاليا لا تستطيع بهذه السرعه المفاجئة أن تعنى بهذا العدد الكبير من اللاجئين[٤٢] . وظلت السفينة الأسابيع تجوب البحر المتوسط باحثة عن ميناء مضياف بينما يعانى ركابها البائسون من رداءة الجو ومن الجوع والمرض . وأخيرا سمح لهم بالنزول فى قورسقه ، وبعد حين أستوعبتهم الولايات البابوية فى جماعات سهلة القيادة . ولقى اليسوعيون فى غضون هذا النفى المماثل من نابلى ويارما وأمريكا الأسبانية والفلبين . وناشد كلمنت الثالث عشر شارل الثالث أن يلغى هذه المراسيم التى سيصعق العالم المسيحى كله لا محالة لما فيها من مباغتة وقسوة . فأجاب شارل « أننى لرغبتى فى أن أعفى العالم من فضيحه كبرى سأظل ما حييت مخبئا فى قلبى سر المؤامرة النكراء التى أقتضت هذه الصرامة . وينبغى لقداستكم أن تصدقوا كلمتى . فسلامة حياتى تفرض على الصمت العميق[٤٣] » .

ولم يفصح الملك قط عن الأدله التى أقام عليها مراسيمه . وفى التفاصيل من التناقض والغموض ما يجعل المرء عاجزا عن الحكم عليها . وقد اعترض

دالامبير على الطريقة التى نفى بها اليسوعيون ، ولم يكن بصديق لهم . فى ٤ مايو ١٧٦٧ كتب إلى فولتير يقول :

« ما رأيك فى مرسوم شارل الثالث الذى طرد اليسوعين على هذا النحو المفاجىء ؟ ألا ترى ، رغم إقتناعى بأن لديه مبررات كافية ووجيهة ، بأنه كان ينبغى أن يفصح عنها لا أن يحبسها فى « قلبه الملكى » ؟ إلا ترى أنه كان ينبغى له أن يسمح لليسوعيين بتبرير أنفسهم ، لا سيما لأن الجميع وأثقون أنهم ما كانوا يستطيعون هذا ؟ وألا ترى أيضا أن من الظلم البين لهم أن يتركوا جميعا ليموتوا جرعا بينما الواجب على أخ علمانى واحد ، ربما يقطع الكرنب الآن فى المطبخ ، أن يقول كلمة بطريقة أو بأخرى فى الدفاع عنهم ؟ . . . إلا يبدو لك أنه كان مستطيعا أن يتصرف بتعقل أكثر فى تنفيذ أمر هو رغم كل شىء أمر معقول[٤٤] » ؟

أكان طردهم اجراء محببا لدى الشعب ؟ بعد عام من إستكمال هذا الطرد وفى عيد القديس شارل ، طلع الملك على شعبه من شرفة قصره ، فلما سألهم جريا على عادة مألوفه عندهم أى منحة يرغبون فى أن يهبهم صاحوا « بصوت واحد » أن يسمح لليسوعيين بالعودة ، وأن يلبسوا رداء الأكليروس غير الرهبانى — فأبى شارل ، ونفى رئيس أساقفة طليطلة متهما أياه بأنه المحرض على الإلتماس الذى أشتبه فى أنه يهدف إلى التوفيق[٤٥] . ولما طاب البابا فى ١٧٦٩ إلى أساقفة أسبانيا رأيهم فى طرد اليسوعيين ، وافق عليه أثنان وأربعون ، وعارضه ستة ، ولم يبد ثمانية رأيا فى الأمر[٤٦] . وأغلب الظن أن الكهنة من غير الرهبان كانوا مغتطين باعفائهم من منافسة اليسوعيين لهم . ووافق الآخوة الأوغسطينيون فى أسبانيا على الطرد ، ثم أيدوا بعد ذلك مطالبة شارل الثالث بفض جماعة اليسوعيين بجملتها[٤٧] .

أما ديوان التفتيش فلم يكن فى الأمكان إتخاذ إجراء معجل كهذا معه ، فقد كان أعمق من جمعية اليسوعيين تغلغلا فى رهبة وتقاليد الشعب الذى عزا إلى الديوان الفضل فى صيانة الأخلاق والاحتفاظ بنقاء إيمانهم — بل حتى

نقاء دمائهم . وحين ولى شارل العرش كان الديوان يسيطر على عقل أسبانيا برقابة صارمة ساهرة . فأى كتاب تظن به الهرطقه الدينية أو الإنحراف الخلقى يقدم إلى الفاحصين ، فإذا رأوم خطرا بعثوا بتوصياتهم إلى مجلس ديوان التفتيش ، وللمجلس سلطة الأمر بمصادرة الكتاب وعقاب مؤلفه . وكان الديوان يصدر دوريا فهرسا بالكتب المحرمة ، وكان احراز كتاب منها أو قراءته دون إذن كنسى جريمة لا يغفرها إلا ديوان التفتيش ، وقد يعاقب مرتكبها بالحرم . وكان على القساوسة خصوصا فى الصوم الكبير أن يسألوا جميع المعترفين بذنوبهم أن كانوا يملكون أو يعلمون أن أنسانا يملك كتابا محظورا. وكل مقصر فى الإبلاغ عن أنتهاك للفهرس يعتبر مذنبا كمنتهكه ، وما كان لأية روابط أسرية أو علاقات ودية أن تعفيه من العقاب(٤٨) .

ولم ينجز وزراء شارل فى هذا المضمار سوى أصلاحات صغيرة . ففى ١٧٦٨ حد من سلطة الديوان فى رقابة المطبوعات باشتراط الحصول على التصديق الملكى على جميع المراسيم المحرمة للكتب قبل تنفيذها . وفى ١٧٧٠ أمر الملك محكمة الديوان بأن تقتصر على الهرطقة والإرتداد دون غيرهما ، وإلا تسجن إنسانا ما لم يثبت ذنبه على نحو قاطع . وفى ١٧٨٤ أمر بأن تعرض عليه اجراءات الديوان الخاصة بكبار النبلاء ، وأعضاء مجلس الوزراء والموظفين الملكيين ، لمراجعتها . ثم عين رئيسا عاما للديوان أبدى موقفا أكثر تحررا بأزاء خلافات الفكر(٤٩) .

وكان لهذه الاجراءات المتواضعة بعض الأثر ، لأن الرئيس العام للديوان التفتيش قرر فى حزن أن الخوف من اللوم الكنسى على قراءة الكتب المحرمة يكاد يصبح فى خبر كان(٥٠) ، وكان وكلاء الديوان بعد ١٧٧٠ بوجه عام أقل غلوا ، وعقوباته أرحم من ذى قبل . ومنح التسامح الدينى للبروتستنت فى عهد شارل الثالث ، وللمسلمين فى ١٧٧٩ ، وأن لم يمنح لليهود(٥١) . وفى عهد شارل الثالث أحتفل بأحراق المنحرفين أربع مرات ، آخرها عام ١٧٨٠ فى أشبيلية حين أحرقت عجوز أتهمت بالسحر ، وأثار إعدامها

هذا من النقد فى كل ارجاء أوربا[٥٢] ما مهد الطريق لالغاء ديوان التفتيش الأسبانى فى ١٨١٣ .

ومع ذلك ظلت حرية الفكر إذا أعرب صاحبها عنها حتى فى عهد شارل الثالث تعاقب قانونا بالموت . ففى ١٧٦٨ أتهم بابلو أولافيدى أمام ديوان التفتيش بحيازته صورا بذيئه فى بيته بمدريد ، وربما كانت نسخا من عرايا بوشيه ، لأن أولافيدى كان قد جاب فرنسا حتى فرنيه . ثم رمى بتهمه أخطر فى ١٧٧٤ ، هى أنه لم يسمح بأقامة أديرة فى القرى انموذجيه التى أنشأها فى سيرا مورينا ، وأنه حظر على الكهنه تلاوة القداس فى غـــير يوم الأحد أو طلب الصدقات . وأحاط ديوان التفتيش الملك بأن هذه الجرائم وغيرها قد أثبتت بشهادة ثمانين شاهدا . وفى ١٧٧٨ أستدعى أولافيدى لمحاكمته وأتهم بتأييده نظرية كوبرنيق الفلكية وتراسله مع فولتير وروسو . فرجع الرجل عن أخطائه وتصالح مع الكنسيه ، وصودرت كل أملاكه ، وحكم عليه بالحبس فى دير ثمانية أعوام . وفى ١٧٨٠ تداعت صحته ، وسمح له بالأستشفاء بمياه منتجع معدنى فى قتلونيه ، ومنها فر إلى فرنسا ، حيث أستقبله أصحابه الفلاسفة فى باريس استقبال الأبطال . ولكنه لم يقض فى منفاه بضع سنوات حتى أستبد به الحنين إلى مغانيه الأسبانيه . فألف كتابا مشربا بروح التقوى عنوانه « الإنجيل المنتصر أو الفيلسوف المهدى » وعليه أذن ديوان التفتيش بعودته[٥٣] .

ونلاحظ أن محاكمة أولافيدى جرت بعد سقوط أراندا من رآسة مجلس قشتالة وفى أخريات حكم أراندا أنشأ مدارس جديدة يقوم بالتدريس فيها أكليروس غير رهبانى لملء الفراغ الذى خلفه اليسوعيون ، وأصلح العمله باحلال نقود من نوع جيد وتصميم أرقى محل العملات المتذوقه (١٧٧٠). على أن إحساسه بأستنارته الفائقة جعله يمضى الزمن نزقا متغطرسا وقحا . فبعد أن جعل سلطة الملك مطلقة سعى إلى تقييدها بزيادة نفوذ الوزراء . وفقد القدرة على الرؤية المتناسبة وتقدير الأمور فى أوضاعها الصحيحة ، وحلم باخراج أسبانيا بعد جيل واحد من كتلتها المطمئنه إلى تيار الفلسفه

الفرنسية . وأعرب فى جرأة مغالية عن أفكاره المهرطقة ، حتى لكاهن اعترافه . ومع أن الكثير من رجال الأكليروس غير الرهبان أيدوا بعض إصلاحاته الكنسيه لما فيها من نفع للكنسيه(٥٤) ، فأنه أخاف عددا أكبر بالكشف عن أمله فى حل ديوان التفتيش جملة(٥٥) . وأشتد كره الناس له حتى أنه لم يجرؤ على الخروج من قصره دون حرس . وراح يكثر من الشكوى من ثقل أعباء وظيفته حتى أخذه شارل آخر الأمر عند كلمته فأوفده سفيرا إلى فرنسا (١٧١٣ — ٨٧) وهناك تنبأ بأن المستعمرات الانجليزيه فى أمريكا ، التى بدأت ثورتها آنذاك ، ستصبح فى الوقت المناسب من أعظم دول العالم(٥٦) .

٣ — الاقتصاد الجديد

سيطر على الوزارة بعد رحيل أراندا ثلاثة من الرجال الاكفاء . فخلف خوزيه مونينو ، كونت فلوريدا بلانكا ، جريمالدى وزيراً للشئون الخارجية (١٧٧٦) ، وسيطر على مجلس الوزراء حتى عام ١٧٩٢ . وقد تأثر بالفلاسفة الفرنسيين كما تأثر أراندا ولكن بدرجة أقل . وأرشد الملك فى اجراءات لتحسين الزراعة والتجارة والتعليم والعلوم والفنون ، ولكن الثورة الفرنسية أخافته فانتكس محافظا ، وقاد أسبانيا إلى أول تحالف ضد فرنسا الثورة (١٧٩٢) . أما بدرو دى كامبومانيس فقد ترأس مجلس قشتالة خمس سنين ، وكان المحرك الأول فى الاصلاح الاقتصادى . وأما جسبار ملكور دى خوفللانوس ، أرفع الأسبان فى جيله(٥٧) » فقد عرفته الجماهير أول ما عرفته قاضيا رحيما نزيها فى أشبيلية (١٧٦٧) ومدريد (١٧٧٨) . وجاء أكثر نشاطه فى الحكومة المركزية تاليا لعام ١٧٨٩ ، ولكنه أسهم إسهاما قوياً فى السياسية الاقتصادية أيام شارل الثالث بكتاب ألفه فى الاصلاح الزراعى (١٧٨٧) . وقد أذاع اقتراحه مراجعة القانون الزراعى ، وهو الاقتراح الذى كتبه برشاقة أسلوب كاد يدانى بها رشاقة أسلوب شيشيرون ، شهرته فى أوروبا طولا وعرضا . هؤلاء الثلاثة ، بالاضافة إلى أراندا ، كانوا أباء التنوير الأسبانى والاقتصاد الجديد . ويرى دارس انجليزى ، بوجه عام ، أن النتيجة الطيبة التى حققوها تضارع ما تحقق فى مثل هذا

الزمن القليل فى أى بلد آخر ، ولا ريب فى أن تاريخ أسبانيا لا يحوى فترة يمكن مقارنتها بحكم شارل الثالث(٥٨) .

كانت العقبات التى اعترضت الاصلاح فى أسبانيا لاتقل خطرا فى الاقتصاد عنها فى الدين . فقد بدأ تركيز الملكية الثابته فى الأسر الشريفه أو الجماعات الكنسية ، واحتكار « المستا » لإنتاج الصوف ، حاجزين فى وجه التغيير الاقتصادى لاسبيل إلى التغلب عليهما . وكان ملايين الأسبان يفخرون بحياة الكسل التى يحيونها ، ولا يخجلون من التسول ، وكانوا لايثقون فى التغيير لأنه خطر يهدد التبطل(*). وكان المال يختزن فى خزائن القصور والكنائس بدلا من استثماره فى التجارة أو الصناعة. وكان طرد المغاربة واليهود والموريسكو قد أزال كثيرا من مصادر تحسين الزراعة وتطوير التجارة . وقد نجم عن صعوبات الاتصال والنقل الداخليين أن تخلف داخل البلاد قرنا عن برشلونه واشبيلية ومدريد .

على أن فريقا من صادق النية — نبلاء وقساوسه وأفرادا من طبقة العامة رجالا ونساء — كونوا رغم هذه المعوقات « جمعية اقتصادية لأصدقاء السلام » لدراسة وتشجيع التعليم والعلوم والصناعة والتجارة والفنون . فأنشأوا المدارس والمكتبات ، وترجموا الأبحاث الأجنبية وقدموا الجوائز على المقالات والأفكار ، وجمعوا المال لمشروعات وتجارب اقتصادية تقدمية. وقد أدانوا تكديس الأمة للذهب باعتباره أثراً مذكراً بالركود ، وذلك اعترافاً منهم بتأثير الطبيعيين الفرنسيين وآدم سمث . وأكد واحد منهم : « ان الأمة التى تملك معظم الذهب هى أفقر الأمم ... كما أثبتت أسبانيا(٦٠). ورحب خوفللانوس بـ « علم الاقتصاد المدنى » باعتباره « علم الدولة الحقيقى». وكثرت المقالات الاقتصادية . وكان مقال كاميومانيس عن الصناعة الشعبية إلهاما للآلاف ومنهم الملك .

(*) قرر قانون أراجونى أن يزود كل نبيل من طبقة الهيدلج كلا من أبنائه بمعاش لأنه « لا يليق بالنبيل أن يشتغل » (٥٩) .

وبدأ شارل باستيراد الغلال والبذور للأقاليم التى اندثرت فيها الزراعة. وحث المدن على أن تؤجر أراضيها المشاع غير المزروعة للفلاحين بأقل إيجار عملى . وأنشأ فلوريدا بلانكا ببعض إيرادات التاج من دخول الرتب الكنسية الشاغرة أرصدة دينية فى بلنسية وملقا لاقراض المال للمزارعين بفائدة منخفضة . ولكى يحد شارل من ازالة الغابات وتعرية التربة أمر جميع الكومونات بأن تزرع كل سنة عدداً محدداً من الاشجار . ومن هنا ذلك الاحتفال السنوى بـ « يوم الشجرة » الذى ظل فى نصف الكرة تقليداً صحياً أيام شبابنا . وقد شجع اغفال الأوقاف القديمة ، وثبط وقف الجديد منها ، وبهذا يسر تجزئة الضياع الكبيرة إلى ملكيات للفلاحين . ثم اختزلت امتيازات إحتكار أغنام المستا اختزالا حاداً وأبيح زرع مساحات كبيرة من الأرض كانت من قبل حكرا للرعى . واستقدم المستعمرون الأجانب لتعمير المناطق الخفيفة السكان ، مثال ذلك أن أولافيدى انشأ (١٧٦٧ وما بعدها) فى اقليم سيرا مورينا بجنوب غربى أسبانيا ، الذى كان إلى ذلك الحين متروكا للصوص والوحوش ، أربعا وأربعين قرية وإحدى عشرة مدينة مأهولة بالوافدين الفرنسيين أو الألمان ، وأصبحت هذه المستوطنات مشهورة برخائها . وشقت القنوات الطويلة لربط الأنهار وري مساحات واسعة من الأرض كانت من قبل جرداء قاحلة . ثم شقت شبكة من الطرق الجديدة كانت فى فترة خير الطرق فى أوربا (٦٢) ، فربطت القرى والمدن فى تيسير يعين على سرعة المواصلات والنقل والتجارة .

ومدت الحكومة يد العون للصناعة . ورغبة فى إزالة الوصمة التى الصقتها التقاليد بالعمل اليدوى ، أعلن مرسوم ملكى أن لاتعارض بين الأعمال الحرفية وشرف المكانة الاجتماعية ، وأن الحرفيين يصح منذ الآن اختيارهم للوظائف الحكومية . وانشئت المصانع النموذجية : للمنسوجات فى وادى الحجارة وسقوبية ، وللقبعات فى سان فرناندو ، وللحرائر فى طلبيره ، وللصينى فى بوين رتيرو ، وللزجاج فى سان إلدفونسو ، وللزجاج والأثاث الخشبى الفاخر وقطع النسيج المرسوم فى مدريد . وشجعت المراسيم الملكية تطور

الإنتاج الرأسمالى على نطاق واسع ، لاسيما فى صناعة النسيج . فكان فى وادى الحجارة عام ١٧٨٠ ثمانمائة نول تستخدم أربعة آلاف نساج ، وأدارت شركة واحدة فى برشلونه ستين مصنعا تضم ٢ر١٦٢ نولا نساج القطن ، وكان فى بلنسيه أربعة آلاف نول تنسج الحرير ، وأخذت تنافس تجارة ليون فى الحرير لما حظيت به من امكانات التصدير . وفي ١٧٩٢ كان فى برشلونة ثمانون الف نساج ، ولم يفقها فى انتاج الأقمشة القطنية غير أقاليم إنجلترة الوسطى .

وكانت أشبيلية وقادس تتمتعان منذ عهد بعيد باحتكار تحميه الدولة للتجارة مع الممتلكات الأسبانية فى الدنيا الجديدة ، فانهى شارل الثالث هذا الامتياز وسمح لمختلف الثغور بالاتجار مع المستعمرات ، ثم أبرم بعد التفاوض مع تركيا معاهدة (١٧٨٢) فتحت الموانى الإسلامية للسلع الأسبانية . وكانت النتائج مجزية لجميع الأطراف . وازداد ثراء أمريكا الأسبانية سريعا ، وارتفع دخل أسبانيا من أمريكا ثمانمائة فى المائة فى عهد شارل الثالث ، وتضاعفت تجارة صادرها ثلاث مرات(٦٣) .

وتطلبت أنشطة الحكومة المتسعة دخـــولا أكبر . وقد أمكن الحصول عليها إلى حد ما باحتكار الدولة لبيع البراندى ، والتبغ ، وورق اللعب ، والبارود ، والرصاص ، والزئبق ، والكبريت ، والملح . وفى بداية العهد كانت هناك ضرائب مبيعات نسبتها خمسة عشر فى المائة فى قتلونيا ، وأربعة عشر فى قشتاله . وقد وصف خوفللانوس ضرائب المبيعات بحق إذ قال « إنها تفاجىء ضحيتها ... عند ميلادها ، وتطاردها وتعترضها حين تدور ، ولا تغفل عينها عنها أبدا أو تدعها تفلت منها حتى تقضى عليها . » (٦٤) وفى عهد شارل الثالث الغيت ضريبة المبيعات فى قتلونيا ، وفى قشتالة خفضت إلى اثنين أو ثلاثة أو أربعة فى المائة (٦٥). وفرضت ضريبة متدرجة معتدلة على الدخول . وضمانا للمزيد من المـــال بتشغيل مدخرات الشعب ، أقنع فرانسسكو دى كاباروس الخزانة بأن تصدر سندات حكومية تقل فائدة . فلما هبطت هذه السندات إلى ثمانية وسبعين فى المائة من قيمتها الأسمية ،

أسس (١٧٨٢) أول مصرف قومى أسبانى — بنكودى سان كارلوس — استهلك السندات بقيمتها الأسمية وأعاد الثقة المالية بالدولة .

وأثمر حسن الإدارة وروح الأقدام زيادة محسوسة فى ثروة الأمة فى جملتها . وكان أكثر الطبقات انتفاعا هى الوسطى ، لأن منظماتها هى التى أعادت تشكيل الاقتصاد الأسبانى . ففى مدريد كون ٣٧٥ من رجال الأعمال خمس نقابات تجارية كبرى سيطرت على معظم تجارة العاصمة . ونستطيع الحكم على مبلـــغ ثرائها من استطاعتها أن تقرض الحكومة عام ١٧٧٦ ثلاثين مليون ريال (٦٦) .

وقد حبذت الحكومة بوجه عام ظهرر طبقة رجال الأعمال هذا باعتباره أمراً لاغنى عنه لتحرير أسبانيا من الاعتماد الاقتصادى والسياسى على دول ذات اقتصاد أرقى . ولم تحظ البرولتاريا الناشئة ، هنا شأنها فى تلك الدول ، بنصيب مذكور فى الثراء الجديد . وارتفعت الأجور لاسيما فى قتلونيه حيث شكا الأغنياء من صعوبة العثور على الخدم والاحتفاظ بهم (٦٧) ، ولكن يمكن القول بوجه عام أن الأسعار ارتفعت بأسرع من ارتفاع الأجور ، وإن الطبقات العاملة كانت فقيرة فى ختام العهد فقرها فى مطلعه . وقد لاحظ إنجليزى حساب بلنسيه فى ١٧٩٧ ذلك التناقض بين (ثراء . . التجـــار ، وأصحاب المصانع ،ورجال الدين ، والعسكريين ، والسادة من ملاك الأرض و « الفقر ، والبؤس ، والأسمال » التى ترى فى كل شارع (٦٨). وعليـــه فقد رحبت الطبقات الوسطى بالتنوير Luees الآتى من فرنسا وإنجلترة فى حين كان موظفوهم الذين ملأوا الكنائس ولثموا المزارات يعزون أنفسهم بالنعمة الآلهية وبآمال الفردوس .

واتسعت المدن فى ظل الاقتصاد الجديد . وكان يعيش فى المراكز البحرية الكبرى — برشلونه وبلنسيه واشبيليه وقادس — سكان يتفاوتون من ٨٠ر٠٠٠ إلى ١٠٠ر٠٠٠ (١٨٠٠). وكان يسكن مدريد (فى ١٧٩٧) ١٦٧ر٦٠٧ ، بالإضافة إلى ٣٠ر٠٠٠ من الأجانب . وحين ولى شارل الثالث العرش كانت المدينة تشتهر بأنها أقذر عواصم أوربا . وكان الناس من سكان

الأحياء الفقيرة لا يزالون يفرغون قمامتهم فى الشواوع معتمدين على الريح أو المطر لتبديدها ، فلما حظر شارل هذه العادة رموه بالطغيان . قال « إن الأسبان أطفال يبكون حين يحممون[٦٩] ». وقد أقام موظفوه رغم هذا نظاما لجمع القمامة وللصرف ، ونظم الزبالون لجمع النفاية لاستخدامها سمادا[٧٠] ، وبذل جهد لمنع التسول ولكنه باء بالفشل ، ورفض الشعب السماح للشرطة بالقبض على المتسولين — لا سيما المكفوفين منهم الذين شكاوا نقابة قوية فيما بينهم .

وأصلح شارل من أمر عاصمته عاما بعد عام . فجىء لها بالماء من الجبال إلى سبعمائة نافورة ، حمله منها ٧٢٠ سقاء فى مشقة وعناء لتوزيعه على بيوت المدينة . وأضيئت الشوارع بمصابيح الزيت من الغسق إلى نصف الليل طوال شهور ستة فى الخريف والشتاء ، وكان أكثر الشوارع ضيقا ملتويا يتبع دروبا عتيقة متعرجة ويتوارى من شمس الصيف ، ولكن بعض الشوارع المشجرة العريضة الجميلة شقت ، وتمتع الشعب بالبساتين الفسيحة والمماشى الظليله . وكان أحبها إلى الناس (باسيوديل برادو) أو متنزه المرج ، الذى لطفت هواءه النوافير والأشجار ، وفضله العشاق للاستطلاع ولقاءات الغرام . وهناك فى ١٧٨٥ بدأ خوان دى فيللا نوفا تشييد متحف البرادو . وهناك فى أى يوم تقريبا كانت تجرى أربعمائة مركبة ، وفى أى عشية كان يتجمع ثلاثون ألف مدريدى . وحظر عليهم التغنى بالأغانى البذيئة ، أو الاستحمام عراة فى النوافير ، أو عزف الموسيقى بعد منتصف الليل ، ولكنهم كانوا يستمتعون بأصوات النساء الرخيمة وهن ينادين على البرتقال والليمون والبندق . ذكر الرحالة أن المشهد الذى كان يرى كل يوم على البرادو فى أخريات القرن الثامن عشر كان يعدل ما يرى فى مدن أخرى فى الفترة نفسها فى الآحاد والعطلات فقط[٧١] ، وأصبحت مدريد آنئذ ، كما عادت فى عصرنا هذا ، من أجمل مدن أوربا .

لم ينجح شارل الثالث فى السياسة الخارجية نجاحه فى الشئون الداخلية . وبدا أن ثورة المستعمرات الإنجليزية فى أمريكا تتيح فرصة الانتقام للخسائر التى منيت بها أسبانيا فى حرب السنين السبع ؛ فحث أراندا شارل على تقديم

العون للثوار ، فبعث لهم الملك سرا بمليون جنيه (يونيو ١٧٧٦) . وأفضت هجمات القراصنة الإنجليز على السفن الإسبانية آخر الأمر إلى إعلان أسبانيا الحرب على إنجلترا (٢٣ يونيو ١٧٧٩) . واستعادت قوة أسبانية مينورقه ، ولكن محاولة الأسبان الاستيلاء على جبل طارق باثت بالفشل . واتخذت العدة لغزو إنجلترا ، ولكن الغزو عطلته العواصف (البروتستنتية) وفى صلح فرساى (١٧٨٣) سحبت أسبانيا مطالبتها بجبل طارق ولكنها استعادت فلوريدا .

وأحـــزن الملك فى سنيه الأخيرة إخفاقه فى استرداد وحدة الأراضى الأسبانية وكانت الحروب قد أتت على شطر كبير من الثروة التى انتجها الاقتصاد الجديد . ولم يستطع وزراؤه الأكفاء أن ينغبوا قط على قوتين شديدتين من قوى المحافظة — كبار البلاء بضياعهم الشاسعة ، والاكليروس بما لهم من مصلحة راسخة فى سذاجة الشعب . أما شارل نفسه فندر أن تذبذب فى ولائه الأصيل للكنسية . ولم يعجب به شعبه قط إعجابه حين يراه — وقد لقى موكبا دينيا — يعطى مركبته للأسقف حامل القربان ثم ينضم إلى الموكب سائراً على قدميه . وأكسبه ورعه المحبة التى افتقدها من الشعب وهو الغريب الوافد من إيطاليا — فى العقد الأول من حكمه . فلما وافته منيته (١٤ ديسمبر ١٧٨٨) ، بعد أربعة وخمسين عاما حكم فيها نابلى وأسبانيا ، كان كثيرون يرون فيه أبر ملوك أسبانيا إن لم يكن أعظمهم . وقد تجلت فطرته الطيبة الرقيقة حين سأله الأسقف القائم على خدمته وهو على فراش الموت هل غفر لأعدائه جميعاً ، فقال متسائلا « كيف انتظر جواز المرور هذا قبل أن أغفر لهم ؟ لقد غفرت لهم أجمعين فى اللحظة التالية للإساءة [٧٢] » .

٦ — الخلق الأسبانى

أى طراز من الناس كان أسبان القرن الثامن عشر هؤلاء ؟ الأجماع على أنهم كانوا قوما أفاضل إذا قيسوا بنظرائهم فى إنجلتره أو فرنسا . وكان لهم من تدينهم الشديد ، ومن شجاعتهم وإحساسهم بالشرف ، ومن تماسكهم ونظامهم الأسريين ، عوامل تصحيح قوية لحساسيتهم الجنسية وكبريائهم

العدوانية ، حتى مع تكريسهم شوفينية مشبوبة فى مسائل العرق والدين . وقد أعاق الانتخاب الجنسى الشجاعة لأن النساء الأسبانيات وهن يطلبن الحماية كن يمنحن أرق ابتساماتهن للرجال الذين يواجهون الثيران فى الحلبة أو الشوارع ، أو الذين يبادرون برفض الإهانة والثأر لأنفسهم ، أو الذين يعودون من الحرب مكللين بغار الانتصار .

ولانت الفضائل الجنسية بتدفق الأفكار والعادات الفرنسية . وكانت الصبايا يحرسن حراسة مشددة ، وكان رضا الوالدين (بعد١٧٦٦) شرطاً قانونونياً للزواج ، ولكن النساء فى المدن الكبيرة كن بعد الزواج ينغمسن فى الغزل والمعابثة وأصبح« الفارس التابع» ملحقا ضرورياً للسيدة العصرية ، وازداد الفجور [٧٣] . وابتدعت جماعة صغيرة تدعى « الماخو » و« الماخا » مظهراً فذا من مظاهر الحياة الأسبانية . وكان الماخو رجالا من الطبقة الدنيا يلبسون كالغناديز ، ويرتدون العباءات الطويلة ، ويطيلون شعورهم ، ويغطون رؤوسهم بقبعات عريضة الحافة ، ويدخنون السيجار الكبير ، وكانوا على استعداد دائم للعراك ، يعيشون عيشة بوهيمية على نفقة خليلاتهم — الماخا — كلما أمكن ذلك . ولم يعبأوا بالقانون فى اتصالاتهم الجنسية ؛ وكان للماخا فى كثير من الحالات زوج يعولها بينما تعول هى خليلها الماخو ، ويعرف نصف العالم الماخا ، كاسية أو عارية من فرشاة جويا .

أما الفضيلة الاجتماعية فكانت عالية المستوى نسبياً . لقد وجد الفساد السياسى والتجارى ، ولكن ليس على النطاق الواسع المعروف آنئذ فى فرنسا أو انجلترة ، ذكر رحاله فرنسى أن « الأمانة الأسبانية مضرب الأمثال وتتجلى واضحة فى العلاقات التجارية » [٧٤] . فكانت كلمة السيد الأسبانى مستنداً أدبياً سارى المفعول من اشبونة إلى سانت بطرسبرج . وكثيراً ما كانت الصداقة فى أسبانيا أبقى من الحب . أما البر بالفقراء فموفور . ففى مدريد وحدها كانت المؤسسات الدينية توزع كل يوم ثلاثين ألفاً من قصاع الحساء المغذى على الفقراء[٧٥]. وأسس الكثير من المستشفيات والملاجىء الجديدة ،

ووسع الكثير من القديم منها أو حسن . وكان جل الأسبان كرماء رحماء إلا مع المهرطقين والثيران .

وكان قتال الثيران ينافس الدين والجنس والشرف والأسرة محلا لحب الأسبان . وكان الدفاع عن هذه المعارك ، شأنه شأن العاب المجالدة فى روما القديمة ، يقوم على أساسين ، أن الشجاعة يجب أن ترتى فى الرجال ، وأن الثيران لا بد أن تموت قبل أن تؤكل . وقد حرم شارل هذه المعارك ، ولكنها استؤنفت بعد موته بقليل . وكان مهرة المصارعين الفرسان ومغامروهم معبودى الطبقات كلها. وكان لكل منهم أنصاره، فدوقة ألبا تؤثر كوستللاريس ودوقه أوزونا تؤثر روميرو ، وقسم الحزبان مدريد كما قسم جلوك ويتشينى باريس . وراهن الرجال والنساء بأرزاقهم على مصير الثيران ، وعلى كل شىء آخر تقريباً .وكان القمار محرماً بالقانون ولكنه شائع ، لا بل كانت البيوت الخاصة تدير أمسيات للقمار وكانت المضيفات يقبضن رسوم اللعب .

وتخلت ملابس السادة شيئاً فشيئاً عن العباءة السوداء المقبضة والياقة الصلبة التى تزيا بها الجيل السابق ، واستبدلت بها الزى الفرنسى — وهو السترة الملونة والصدرة الطويلة من الساقان أو الحرير ، وسراويل الركوب ، والجوارب الحريرية الطويلة ، والحذاء ذو المشبك ، يتوج هذا كله باروكة وقبعة مثلثة الأركان . أما المرأة الأسبانية فألفت أن تجعل من مفاتنها سراً غامضاً مقدسا تلفها فى صدرات من الدنتللا وتنورات طويلة ، ذات أطواق موسعة أحياناً . وتستعمل براقع من قماش الطرح إخفاء لعيونهن التى يود المعجب الأسبانى لو أغرق روحه فى أعماقها المظلمة. وكانت السيدة فى القرن السابع عشر نادراً ماتكشف عن قدميها لأنظار الرجال . أما الآن فقد قصرت الجونلة إلى بضع بوصات فوق الأرض ، واستعيض عن الخفين المستويين بحذاء مدبب عالى الكعب . وقد أنذر الوعاظ بأن تعرية النساء لأقدامهن على هذا النحو غير المهذب إنما يزيد نار الرجال المتقدة اشتعالا . ولكن النساء ابتسمن ، وزين أحذيتهن ، ونشرن تنوراتهن ، وروحن بمراوحهن

حتى فى أيام الشتاء . وكانت ازابيللا فارنيزى تملك ذخيرة من ١٦٢٦ مروحة زين بعضها برسوم لرسامين ذوى شهرة قومية .

وكانت الحياة الاجتماعية مقيدة فى كل شىء إلا المراقص . فاجتنبت المجتمعات فى الأمسيات النقاش الجاد مؤثرة عليه الألعاب والرقص والغزل . وكان الرقص غراماً كبيراً فى أسبانيا ، وقد أفرخ ألواناً أشتهرت فى أوربا . فكانت « الفاندانجو » ترقص على ميزان ثلاثى بالصاجات ، أما السجيديللا فيؤديها زوجان أو أربعة أزواج من الراقصين ، بمصاحبة الصاجات وبالغناء عادة ، وقد اتخذت رقصة مشتقة منها تسمى البوليرو شكلها حوالى ١٧٨٠ ، وسرعان ما اكتسبت شعبية مجنونة . وفى رقصة الكونترادانزا كان صف من الرجال يواجه صفاً من النساء فى تقدم وتأخر متناوبين ، وكأنما يرمز هذا إلى تكتيك الحرب الأبدية بين المرأة والرجل ، أو كان أربعة أزواج يؤلفون ويحيطون مربعاً فى رقصة فخمة تدعى الكونترا دانزا كوادرادا — أى الكدريل . وكانت حفلات الرقص المقنع تجتذب أحياناً ٣,٥٠٠ من الراقصين المتحمسين ، وكان القوم فى المرافع يرقصون حتى مطلع الفجر .

وجعلت هذه الرقصات الحركة شعرا حيا وحافزاً جنسيا . قيل إن المرأة الأسبانية التى ترقص السجيديللا كان فى رقصها من الإغراء ما يخرج البابا ومجمع الكرادلة بأسره عن وقارهم [٧٦] . وقد وجد كازانوفا نفسه شيئاً يتعلمه فى أسبانيا فقال :

« حين أوشك الليل أن ينتصف بدأت أعنف الرقصات وأكثرها جنونا ... وهى الفندانجو ، التى ظننت فى سذاجتى اننى طالما شهدتها ، والتى فاقت (هنـــا) أشد تصوراتى جموحا ... فى إيطاليا وفرنسا يحرص الراقصون على تجنب الايماءات التى تجعل هـــذه الرقصة أكثر الرقصات شهوانية . ويخطو الزوجان — راقص وراقصة — ثلاث خطوات فقط ، ثم يرتميان فى مختلف الأوضاع الفاجرة وهما يصاحبان الموسيقى بالمصاحبات ويعرضان قصة العشق كلها من مولده إلى ختامة ومن أول تنهيده إلى آخر نشوه . فلم أملك لشدة انفعالى إلا أن أصيح عاليا . » [٧٧]

وقد عجب من سماح ديوان التفتيش برقصة مثيرة إلى هذا الحـــد ، فقيل له أنها « محرمة تحريما باتا ، ولولا أن الكونت اراندا اذن بها لما جرؤ أحد على رقصها » .

وارتبطت بالرقص ألوان من الموسيقى الأسبانية كانت من أحبها إلى الشعب ، مثال ذلك أن الكانتى فلامنكو أو الغناء الغجرى (الفلمنكى) استخدم نغمة شاكية عاطفية كان كل المغنين الغجـــر يصاحبون بها « السجيديللا جيتانا » . ولعل هذه الأغانى الشجية كانت أصداء لألحان مغربية ، أو لعلها عكست النوعية المكتئبة للدين والفن الأسبانيين ، أو العجز المسخط عن الوصول إلى جسد المرأة ، أو انقشاع الوهم عقب الوصال . وقد وفدت نغمة أبهج بوفود الأوبرا الإيطالية (١٧٠٣) وأغانى فازينللى . ولكن « الخصى » العجوز فقد الحظوة فى عهد شارل الثالث بعد أن ظل يشدو بأغانيه طوال عهدين ، وقد أنزله شارل عن عرشه بهذا السطر « أن الديوك المخصية لا تصلح إلا للأكل [٧٨] » . واتصل النفوذ الإيطالى بمجىء سكارلاتى ، وانتصر مرة أخرى بمجىء بوكيرينى الذى قدم فى ١٧٦٨ ، وسيطر على موسيقى البلاط على عهد شارل الثالث وشارل الرابع ، ومكث بأسبانيا حتى وافاه الأجل (١٨٠٥) .

وبحركة عكس هذه الحركة وفق فنشنتى مارتن أى سولار ، بعد أن حقق لنفسه الشهرة فى أسبانيا ، فى أن يخرج الأوبرا الإيطالية فى فلورنسه ، وفيينا ، وسانت بطرسبرج ونافست صوناتات أنطونيو ســـولر على الهاربسكورد صونتات سكارلاتى ، وحول دون لويز ميسون « التونادا » أو السولو الصوتية ، إلى « التوناد يللو » فاصلا من الغنـــاء بين فصول المسرحية . وفى ١٧٩٩ أنهى أمر ملكى حكم الموسيقى الإيطالية فى أسبانيا بحظر أداء أى تمثيلية ما لم تكتب باللغة القشتالية ويمثلها ممثلون أسبان[٧٩] .

والخلق الأسبانى لا يمكن صبه فى قالب متماثل واحد . فالروح الأسبانية تتفاوت بتفاوت المشهد الطبيعى من ولاية إلى ولاية ، وكان الأسبان المتفرنسون الذين تجمعوا فى مدريد طرازا يختلف كل الاختلاف عن المواطنين الذين

تجمدوا فى العادات الأسبانية . ولكننا قد نستطيع بعد أن نغض النظر عن الأقليات الدخيلة أن نتبين فى الشعب الأسبانى طبعا أصيلا متفردا . فقد كان فى الأسبانى كبرياء ولكن فى قوة صمامته لا تستمد الكثير من الشوفينية أو القومية ، كانت كبرياء الفردية ، واحساسا مصمما بالكفاح المنفرد ضد الأذى الدنيوى أو الإهانة الشخصية أو الهلاك الأبدى . ولمثل هذه الروح كان يمكن أن يتبدى العالم الخارجى أمرا ذا أهمية ثانوية لا يستحق القلق أو الكد فى سبيله ، فلا أهمية إلا مصير النفس فى الصراع مع الإنسان والبحث عن الله . إذن فما أتفه مشكلات السياسة ، والسباق على المال ، والاعلاء من قدر الشهرة أو المنصب ، وحتى انتصارات الحرب لا مجد يكللها ما لم تكن انتصارات على أعداء الدين . اما وقد ضربت جذور الأسبانى فى صميم هذا الدين ، فقد كان فى استطاعته أن يقابل الحياة بهدوء رواقى ، وبإيمان بالقضاء والقدر ينتظر فى اطمئنان ثواب الجنة بعد الممات .

٧ — العقل الأسبانى

حين قبل لويس الرابع عشر ما عرضه آخر ملوك الهابسبورج فى أسبانيا من الايصاء بتاجه لحفيد الملك العظيم ، صاح سفير أسبانى بفرساى فى ابتهاج « لم يعد الآن وجود لجبال البرانس ! » ولكن تلك الكتل الرهيبة لم تتزحزح عن موقفها عقبة كؤودا فى سبيل التنوير الفرنسى ، ورمزا للمقاومة التى ستلقاها محاولة قلة مخلصة أن تصبغ العقل الأسبانى بالصبغة الأوربية .

وقد فاجأ كاميومانيس الشيوخ بمقال فى التعليم الشعبى (١٧٧٤ — ٧٦) ، جعل من التوسع فى التعليم الشعبى أساسا لا غنى عنه لحيوية الأمة ونموها . ولم ير بعض كبار رجال الدين وملاك الأرض معنى لإزعاج الشعب بمعرفة لا لزوم لها قد تفضى فى النهاية إلى الهرطقة الدينية أو الثورة الاجتماعية . ولكن خوفيللانوس الذى لم يثنه هذا الاعتراض كافح لنشر الإيمان بالتعليم ، وكتب يقول « كثيرة هى الجداول المؤدية إلى الرخاء الاجتماعى ، ولكنها كلها تنبع من منبع واحد هو التعليم العام . (٨٠) وكان يعلل نفسه بأن التعليم

سيعلم الناس أن يفكروا ، وإن التفكير سيحررهم من سلطان الخرافة والتعصب ، وإن العلم الذى يطوره أمثال هؤلاء سيستخدم موارد الطبيعة لقهر المرض والفقر . وتقبل بعض كرائم النبيلات هذا التحدى ، والفن Junta de Damas لتمويل المدارس الإبتـــدائية . وانفق شارل الثالث مبالغ كبيرة فى إنشاء المدارس الأولية المجانية . وشارك أفراد غير رسميين فى تأسيس الأكاديميات لدراسة اللغات أوالأدب أو التاريخ أو الفن أو القانون أوالطب .

وكان طرد اليسوعيين ملزماً بإعادة تشكيل المدارس الثانوية وميسراً لها . وأمر شارل بتوسيع مقررات العلوم فى هذه الكليات ، وبتحديث كتبها المدرسية ، وبالسماح للعلمانيين بالتدريس فى أقسامها . وأعان الكليات بالمنح والهبات ، وقرر المعاشات للبارزين من المعلمين[٨١] » . ونصحت الجامعات بتدريس فيزياء نيوتن وفلسفة ديكارت وليبنتز فى مناهجها . ورفضت جامعة سلمنقه النصيحة بحجة أن « مبادىء نيوتن ... وديكارت لاتشابه الحقيقة الموحى بها بالقدر الذى تشابهها به مبادىء أرسطو[٨٢] » ، ولكن معظم الجامعات الأسبانية قبلت التوجيه الملكى ، وكانت جامعة بلنسيه الآن (١٧٨٤) ، بطلابها البالغ عددهم ٢ر٤٠٠ ، أكبر المراكز التعليمية وأكثرها تقدماً فى أسبانيا . وأدخلت عدة طوائف دينية « الفلسفة الحديثة » فى كلياتها . وحث قائد الرهبان الكرملين الحفاة ، المعلمين الكرمليين على قراءة أفلاطون وأرسطو وشيشرون وفرنسيس بيكن وديكارت ونيوتن وليبنتز ولوك وفولف وكوندياك . هنا لم يكن للقديسين حكم . ودرست جماعة من الرهبان الأوغسطينيين هوبز ، وأخرى هلفيتوس . وكانت مثل هذه الدراسات تلحق دائماً بردود تفندها ، ولكن كثيراً من المؤمنين الغيورين فقدوا إيمانهم وهم يفندون دعاوى أعدائه .

من ذلك « حداثة » راهب فذ اشتهر يوم كان شارل لا زال شاباً ، ذلك هو بنيتو خيرونيمو فيخواى مونتنجرو الذى انفق الأعـــوام السبعة والأربعين الأخيرة من عمرة (١٧١٧ — ٦٤) فى دير بندكتى باوفيدو،

ومع ذلك استطاع أن يدرس بيكن وديكارت وجاليليو وبسكال وجاسندى ونيوتن وليبنتز ، ورأى فى عجب وخجل كيف عزلت أسبانيا بعد سرفانتس عن التيارات الكبرى للفكر الأوربى . فأرسل من قلايته ، بين عامى ١٧٢٦ و١٧٣٩ ، سلسلة من ثمانية مجلدات سماها Teatro critico وهو لايعنى نقد المسرح ، بل الامتحان الدقيق للافكار . وقد هاجم فيها المنطق والفلسفة اللذين يدرسان فى أسبانيا فى أيامه ، وامتدح دفاع بيكن عن العلم الاستقرائى ، ولخص كشوف العلماء فى كثير من المجالات ، وهزأ بالسحر والكهانة والمعجزات الزائفة ، والجهل بالطب ، والخرافات الشعبية ، ووضع قواعد للوثوق بالتاريخ نسفت الأساطير القومية الساذجة فى غير رحمة ، وطالب بنشر التعليم بين جميع الطبقات ،ودافع عن حياة أكثر حرية وعلنية للنساء فى التعليم والمجتمع .

واجتمع حول كتبه شرذمة من الإعداء يتهمون وطنيته ويندون باقتحاماته . واستدعاه ديوان التفتيش أمام محكمته ، ولكنها لم تهتد إلى هرطقه صريحة لا فى شخصه ولا فى كتابه . وفى ١٧٤٢ استأنف حملته باول مجلدات خمس عنوانه « رسائل متفقهة مستطلعة » . وكان يكتب بأسلوب جيد ، مقرا بالتزام كل مؤلف التزاما إدبيا بأن يكون واضحا ، « استطاب الجمهور تعليمه وشجاعته فتكاثر الطلب على « التياترو » و « الرسائل » حتى بلغ ما طبع منهما خمس عشرة طبعة حتى عام ١٧٨٦ . ولكنه لم يستطع قطع دابر الخرافة فى أسبانيا ، فظلت الساحرات والعفاريت والشياطين تملأ الجو وتخيف العقول ، ولكن كان جهده بداية السير على الدرب ، ومن مفاخر طاقته أن يقوم بهذا الجهد راهب لزم قلايته المتواضعة دون أن يزعجه أحد حتى أوفته منيته وهو فى الثامنة والثمانين (١٧٦٤) .

وأكليريكى أخر هو الذى كتب أشهر كتاب نثرى فى أسبانيا فى القرن الثامن عشر . وكما حرص البندكتيون على إلا يلحق بفيخواى أذى ، فكذلك حمى اليسوعيون قسيسا منهم كان أهم إنتاج له نقدا لاذعا للمواعظ . وكان خوزيه فرانسسكو ذى ايزلا هو نفسه وأعظا بليغا ، ولكن أضحكته

أول الأمر ، ثم أزعجته ، الحيل الخطابية والأوهام الأدبية ، والتمثيل والتهريج الذى يجلب به بعض الوعاظ أنتباه الشعب ودراهمه فى الكنائس والميادين العامة . وفى ١٧٥٨ سخر سخرية لاذعة بهؤلاء المبشرين فى « قصة عن الراهب جيروندو الواعظ المشهور » . يقول الأب ايزلا إن الراهب جيروندو :

« ألف أن يبدأ عظاته بمثل أو نكته سوقيه أو شذرة غريبة أنتزعت من سياقها فبدت لأول وهلة غير منطقيه أو تجديفا أو كفرا حتى إذا ترك جمهوره لحظة مترقبا فى عجب أنهى عبارته وطلع بتفسير أحال كل ما قاله إلى ضرب من التفاهة الحقيرة . من ذلك أنه كان يعظ ذات يوم عن سر الثالوث فاستهل عظته بقوله « أنى أنكر إن الله موجود كوحدة فى الجوهر وثالوث فى الذات » ثم توقف لحظه . وتلفت السامعون بالطبع حولهم . . متسائلين ما عسى أن تكون خاتمة هذا التجديف المهرطق . واخيرا ، وبعد أن ظن الواعظ أنه قبض على ناصيتهم ، وأصل الحديث قائلا : « كذلك يزعم الأبيونيون ، والمارسيونيون ، والاريوسيون ، والمانويون ، والسوسينيون ، ولكنى أثبت ضلالهم كلهم من الأسفار المقدسة ، والمجامع ، وآباء الكنيسه[٨٣] » .

وبيعت ثمانمائه نسخة من كتاب « الراهب جيروندو » خلال يوم من صدوره . وهاجمه الرهبان الوعاظ زاعمين أنه يشجع على احتقار رجال الدين . وأستدعى أيزلا أمام محكمة التفتيش ، وأدين كتابه (١٧٦٠) ، أما هو فلم يعاقب . ثم أنضم إلى أخواته اليسوعيين فى المنفى ، وأصيب فى الطريق بالشلل . وقضى ختام عمره فى بولونيا عائشا على المعاش الضئيل الذى منحته أياه الحكومه الأسبانية .

أما الشعر فكان يقرضه كل أسبانى ملم بالكتابه . وقد اجتمع فى ١٧٢٧ فى مباراة شعرية (عام ١٧٢٧) ١٥٠ متنافسا . واضاف خوفيلانوس الشعر والدراما لضروب نشاطه الأخرى فقيها ومربيا ورجل دولة . وأصبح بيته

فى مدريد ماتق لرجال الأدب وقد ألف الهجائيات على طريقة جوفينال ، موبخا الفساد الذى وجده فى الحكومة والقانون ، وتغنى بمناهج الحياة الريفية الآمنه المطمئنه شأن كل ساكن للمدن . ونظم نقولا فرناندیز دى موراتن شعرا ملحميا تناول مغامرات كورتيز ، ويقول العارفون أن — هذه القصيدة « أرفع قصيدة من نوعها أنجبتها أسبانيا فى القرن الثامن عشر[٨٤] » .

وكانت الأشعار المرحة المهذبة التى نظمها دييجو جونزالز ، الراهب الأوغسطينى ، أحب إلى الشعب من قصيدته التعليمية « مراحل الإنسان الأربع » التى إهداها إلى خوفيللانوس . كذلك اتخذ دون توماس دى أيريارتى إى أوروبيزا إتجاها تعليميا فى قصيدته « فى الموسيقى » ، وكان خيرا منها « قصصه الخرافية » (١٧٨٢) التى طعنت مغامز العلماء وأكسبته شهرة لم تزل حية إلى اليوم . وترجم بعض مآسى فولتير وملاهى موليير . وسخر من الرهبان « الذين يتسلطون على السماوات وعلى ثلثى أسبانيا » ، وقد حاكمه ديوان التفتيش فانكر آراءه ، ومات بالزهرى وهو فى الحادية والأربعين (١٧٩١)[٨٥] .

وفى ١٧٨٠ أعلنت الأكاديمية الأسبانية عن جائزة تمنح لقصيدة تمجد الحياة الرعوية . فقال إيريارتى الجائزه الثانية ولم يغفر قط لصاحب الجائزة الأولى ، لأن خوان ميلانديز فالديس مضى قدما ليصبح كبير الشعراء الأسبان فى ذلك العهد . وتودد خوان إلى خوفيلانوس ، وحصل بنفوذه على كرسى الأنسانيات فى جامعة سلمنقه (١٧٨١) وهناك إقنع الطلاب أولا ، ثم الكلية ، بدراسة منهج أكثر إقتحاما ، بلغ إلى حد قراءة لوك ومونتسكيو . وألف فى أوقات فراغه فيما بين المحاضرات مجلدا من الأغانى والشعر الرعوى — هو أستحضارات حية لمشاهد الطبيعة فى أبيات بلغت من الرقة وكمال الصقل مالم تقرأه أسبانيا منذ أكثر من قرن . وكان للرضى الذى أسبغه عليه خوفللانوس الفضل فى ترقيته إلى منصب القضاء بسرقسطه وإلى محكمة القضاء العالى فى بلد الوليد ، وأضرت السياسة بشعره . فلما نفى خوفيللانوس (١٧٩٨) أقصى ميلانديز أيضاً . فجرد قلمه للتنديد بغزاة

أسبانيا الفرنسيين ، وخص منهم جوزف بونابرت ، ولكنه عاد إلى مدريد فى ١٨٠٨ ، وقبل وظيفة تحت رآسة جوزف بونابرت ، وصدم أسبانيا بقصائد يتملق بها سادته الأجانب . وفى حرب التحرير التى خلعت جوزف نهب الجنود الفرنسيون منزل الشاعر ، وهاجمه هو نفسه الغوغاء الغاضبون، فهرب لحياته من أسبانيا . وقبل أن يعبر البيداسوا إلى فرنسا قبل آخر بقعه من التراب الأسبانى (١٨١٣) . وبعد أربع سنوات مات فقيرا مغمورا فى مونبلييه .

وكان ينبغى أن يكون لأســـبانيا كتاب مسرح أكفاء فى هذا العهد ، لأن الملوك البوربون كانوا ميالين للمسرح . وقد عملت على أضمحلاله ثلاثة عوامل : إيثار إيزابللا فارنيزى القوى للأوبرا ، وفليب الخامس لفارينالى ، ومن ثم اعتماد المسرح على الجمهور الذى كان أكثر ما يستحسنه هـــو « الفارص » ، والمعجزات ، والأساطير والشقشقات اللفظية ، وجهد كتاب الدراما الجادون لحبس تمثيلياتهم داخل « الوحدات الارسطاطالية » فى الحركة والمكان والزمان . وكان أحب كتاب المسرحية إلى الشعب فى ذلك القرن هو رامون فرانسسكودى لأكروز ، الذى كتب نحو أربعمائة فارص صغير يهجو فيها عادات الطبقتين الوسطى والدنيا وأفكارهما وحديثهما ، ويصور مع ذلك ذنوب الجماهير وحماقاتهم بعطف غافر . أما خوفيللانوس ، « رجل أسبانيا الجامع » فقد جرب الكوميدياً ، وظفر باستحسان الجمهور والنقاد جميعا بملهاته « المجرم المكرم » (١٧٧٣) : وفحواها أن سيداً أسبانيا يرفض مرارا وتكراراً أن يبارز غريما ثم يقبل التحدى أخيرا بعد الحاح ، ويقتله فى معركة عادلة ، ثم يحكم عليه بالاعدام قاض يتبين أنه أبوه . وقد أستهدف خوفيللانوس ، وهو المصلح على الدوام ، من تمثيليته هذه الوصول إلى التخفيف من القانون الذى اعتبر المبارزه جريمة كبرى .

أما الحملة الداعية إلى الوحدات الارسطاطالية فقد تزعمها الشاعر نيقولا فرناندیزدى موراتن : وواضلها حتى تكللت بالنجاح ابنه ليأندرو . وقد أبهجت خوفللانوس أشعار هذا الفتى الباكرة ، فحصل له على وظيفة فى

السفارة الأسبانية بباريس . وهناك صادق جولدونى ، فوجهه إلى كتابة التمثيليات . وأغدق الحظ هباته على صوراتين الابن : فأوفد على نفقة الدولة ليدرس المسارح فى المانيا وإيطاليا وانجلتره . وحين عاد إلى أسبانيا منح وظيفة شرفية أتاحت له الفراغ اللازم للعمل الأدبى . وقدمت ملهاته الأولى لمسرح فى مدريد عام ١٧٨٦ ، ولكن عرضها عطل أربع سنوات ريثما يفرغ المديرون والممثلون من الجدل فى استطاعة تمثيلية تتبع قواعد أرسطو والتمثيلية الفرنسية أن تجتذب جمهوراً أسبانياً . وقد نجحت نجاحاً معتدلا . وانقلب موراتين مهاجما ، ففى تمثيليته الكوميديا الجديدة (١٧٩٢) سخر من الملاهى الشعبية سخرية تقبل الجمهور بعدها الدرامات التى تدرس الخلق وتنير الحياة . وأشاد القوم بموراتين موليرا أسبانيا ، وسيطر على مسرح مدريد حتى غزا الفرنسيون أسبانيا عام ١٨٠٨ . وقادته ميوله الفرنسية وسياسته التحررية كما قادت ميلانديز وجويا إلى التعاون مع حكومة جوزف بونابرت ، فلما سقط جوزف لم ينج موراتين من السجن إلا بشق النفس . ولجأ إلى فرنسا . ومات أخيراً بباريس فى ١٨٢٨ ـ وهى السنة التى مات فيها ببوردو الرسام جويا الذى نفى نفسه عن وطنه مختارا .

٨ — الفن الأسبانى

ما الذى يمكن توقعه منه بعد اجتياح أسبانيا فى حرب الوراثة لأسبانية الطويلة ؟ لقد سلبت الجيوش الغازية الكنائس ، ونهبت المقابر ، وأحرقت الصورة ، وربطت خيولها فى المزارات المقدسة . ثم جاء غزو جديد بعد الحرب ، وخضع الفن الأسبانى طوال نصف قرن للنفوذ الفرنسى أو الايطالى فلما انشئت أكاديمية سان فرناندو عام ١٧٥٢ لإرشاد شباب الفنانين ومساعدتهم ، جاهدت لتقر فى أذهانهم مبادىء كلاسيكية جديدة غريبة كل الغرابة عن الروح الأسبانية .

وكافح الباروك كفاحا عنيفاً فى سبيل البقاء ، وكان له ما أراد فى المعمار

والنحت . فانتصر فى الأبراج التى أضافها فرناندو دى كازيس أى نوفا (١٧٣٨) إلى كتدرائية سنتياجودى كومبو ستيلا ، وفى الواجهة الشمالية التى شيدها فنتورا رودريجيز (١٧٦٤) لهذا الصرح ذاته تذكاراً للقديس يعقوب حامى أسبانيا وقد زعمت إحدى الأساطير المحببة الشعب أن تمثالا للعذراء مقاماً على عمود فى سرقسطه دبت فيه الحياة وتكلم مع القديس يعقوب . فى ذلك الموقع شيدت التقوى الأسبانية « كنيسة عـذراء العمود » ، ولتلك الكنيسة صمم رودريجيز هيكلا هو مقصورة من الرخام والفضة يضم تمثال العذراء .

وأقيم قصران مشهوران فى عهد فليب الخامس . فقد اشترى على مقربة من سقوبية أرض دير ومزرعته الملحقة ، ووكل إلى فليبو يوفارا التورينى أن يشيد على هذه البقعة قصر سان الدفونسو (١٧١٩ وما يليها) ، وأحاط المبانى بحدائق وست وعشرين نافورة تنافس نافورات فرساى . وعرفت هذه المجموعة بلاجرانغا ، وقد كلفت الشعب ٤٥٫٠٠٠٫٠٠٠ كراون . ولم تكد تكتمل حتى دمرت النار ليلة ميلاد عام ١٧٣٤ « القصر » الذى كان المقر الملكى بمدريد منذ عهد الأمبراطور شارل الخامس وانتقل فيليب إلى بوين رتيرو التى شيد فيها فليب الثانى قصرا فى ١٦٣١ . فظل هذا المقر الرئيسى للملك طوال ثلاثين عاما .

وصمم يوفارا قصرا ملكيا آخر عوضا عن « القصر » المحترق — يضم المساكن والمكاتب وحجرات الاجتماع ومصلى ومكتبة ومسرحا وحدائق — لو شيد لفاق فى فخامته أى قصر ملكى عرف يومها ، وكان النموذج وحده يحوى من الخشب كمية تكفى لبناء بيت . ولكن يوفارا عاجلته المنية قبل أن يبدأ البناء (١٧٣٦) . ورفضت إيزابللا فارنيزى تصميمه لفداحة تكاليفه ، فشيد خلفه جوفانى باتستا ساكيتى التورينى القصر الملكى (١٧٣٧ — ٦٤) القائم بمدريد اليوم — وطوله ٤٧٠ قدما ، وعرضه ٤٧٠ قدما ، وارتفاعه ١٠٠ قدم . هنا حل طراز النهضة المتأخرة محل الباروك : فكانت الواجهة ذات أعمدة دورية وايونية ، يتوجها درابزين انتشرت عليه تماثيل ضخمة

للوك أسبانيا القدامى . وحين صحب نابليون أخاه جوزف ليملك فى هذا القصر قال وهما يصعدان السلم الفخم « ستكون أفضل منى منزلا[٨٦] » . وقد انتقل شارل الثالث إلى هذا الصرح الهائل عام ١٧٦٤ .

أما النحت الأسبانى ففقد بعض صرامته وجموده متأثراً بالفنن الفرنسى والإيطالى ، وخلع الضحاك على ملاكه (السيرافيم) والرشاقة على قديس أو قديسين. وكانت موضوعاته دينية على الدوام تقريباً ، لأن الكنيسة كانت تدفع للنحاتين أعلى الأجور . من ذلك أن رئيس أساقفة طليطلة أنفق ٢٠٠ر٠٠٠ دوقاتية على حجاب المذبح الشفاف الذى أقامه نارسيسوتومى (١٧٢١) خلف خورس الكتدرائية : وهو مجموعة ملائكة من رخام يطفون على سحب من رخام ،وكان فى ممشى الكنيسة المسقوف فتحة جعلت الرخام وضاء ومنه اتخذ حجاب المذبح اسمه . وعاشت الواقعية القديمة فى تمثال « جلد المسيح[٨٧] » الذى نحته لوزيز كارمونا — وهو تمثال من الخشب ، رهيب بما فيه من آثار ضرب وجروح دامية . وأجمل منه تماثيل الإيمان ، والرجاء ، والمحبة ، التى نحتها فرانسسكو فرجارا الإبن لكتدرائيات كوينسا (١٧٥٩) . وقد عدها سبان — برموديز ، فازارى أسبانيا ، أروع ما انتجه الفن الأسبانى .

وأعظم الأسماء فى فن النحت الأسبانى فى القرن الثامن عشر كان اسم فرانسسكو زاركيللو إى الكراز . مات أبوه ومعلمه ، وكان نحاتا فى كابوا ، وفرانسسكو فى العشرين وخلفه العائل الأول لأمه وأخته وستة إخوه . وكان الفتى أفقر من أن يستأجر الموديلات ، لذلك كان يدعو المارة ، بل المتسولين ليشاركوه غداءه وليرسمهم ، وربما كانت تلك هى الطريقة التى عثر فيها على الأشخاص لرائعته « العشاء الأخير » المحفوظة الآن فى « دير يسوع » بمرسيه . وبمساعدة أخته اينيس التى كانت ترسم وتعمل نموذجاله ؛ وأخيه خوزيه ، الذى كان ينحت التفاصيل ، وأخيه القسيس باتريسيو ، الذى كان يلون الأجسام والثياب ، انتج فرانسسكو فى سنى عمره الأربع والسبعين ١ر٧٩٢ تمثالا فيها الكبير وفيها الصغير ، بعضها ذو حيل لاطعم لها كعباءة.

من المخمل المطرز فوق تمثال للمسيح ، بعضها مؤثر بتقواه البسيطة تأثيرا حمل مدريد على أن تعرض عليه مهام مجزية لتزيين القصر الملكى . ولكنه فضل البقاء فى وطنه مرسيه الذى شيعه عند وفاته عام ١٧٨١ فى مشهد جليل .

أما التصوير الأسبانى فى القرن الثامن عشر فكان يرزح تحت كابوس أجنبى مزدوج لم يفق منه حتى حطم جويا كل القيود بفنه الجارف الذى لم يسبق له نظير . جاءت أول الأمر موجة فرنسية بمجىء ران ورينيه وميشيل — آنج هواس ، ولوى — ميشيل فانلو . وقد أصبح هذا مصور البلاط لفليب الخامس ، ورسم لوحة هائلة للأسرة المالكة كلها ، بالبواريك والجونلات المطوقة ، وغيرها (٨٨) . ثم أقبل قطيع من الإيطاليين الذين يفيضون حيوية فانفينللى ، واميجونى ، وكورادو .

ووصل جامباتستا تيبولو وأبناؤه إلى مدريد فى يونيو ١٧٦٢ . وعلى سقف غرفة العرش فى القصر الملكى الجديد رسموا صورة جصيه شاسعة « تمجيد أسبانيا » ، احتفالا بتاريخ الملكية الأسبانية وقوتها وفضائلها وتقراها وأقاليمها : فيها الأجسام الاسطورية الرمزية متوازنة فى الهواء ، والنيريدات والتريتونات والزفيرات ، والجن المجنح ، والأطفال الملائكة ، والفضائل الرذائل محلقة فى الفضاء المنور ، وأسبانيا ذاتها متربعة على العرش وسط ممتلكاتها ، ممجدة بكل صفات الحكومة الصالحة . وعلى سقف غرفة الحرس رسم تيبرلو « اينياس تقوده فينوس إلى معبد الخلود » . وعلى سقف الحجرة الملحقة بمخدع الملكة رسم ثانية « انتصار الملكية الأسبانية » . وفى ١٧٦٦ كلف شارل تيبولو بأن يرسم سبع لوحات لمذبح كنيسة القديس بسكال بأراشيز ، واستخدم المصور فى احداها وجه حسناء أسبانية ليمثل حمل العذراء غير المدنس . ولا تزال الصورة تتألق . فى البرادو . وأدان كاهن الملك ، الأب خوالين دى إلكنا ما فى فن تيبولو من وثنية وفجاجات لأنها دخيلة على روح أسبانيا . وتاب تيبولو ، ورسم صورة قوية سماها انزال المسيح عن الصليب .» (٨٩) ، وهى تأمل فى الموت تنيره الملائكة

الواعدة بالقيامة وأرهقت هذه الجهود الجبار الهرم ، فمات فى مدريد عام ١٧٧٠ وقد بلغ الرابعة والسبعين . وبعد قليل ازيلت لوحات مذبح ارانجنيز وكلف أنطون روفائيل منجز برسم لوحات بدلها .

وكان منجز قد وفد على مدريد فى ١٧٦١ وهو فى الثالثة والثلاثين ، فتى قوى واثق من نفسه آمر ناه . ولم يكن شارل يشعر قط بارتياح لمرأى غيوم تيبولو المنورة — فآنس الآن فى هذا الألمانى المقحام الرجل المطلوب لتنظيم العمل الفنى اللازم للقصر . وفى ١٧٦٤ عين منجز مديرا لأكاديمية سان فرناندو ، وسيطر على التصوير الأسبانى فى فترات اقامته بأسبانيا . وقد أساء ترجمة الطراز الكلاسيكى إلى سكون لا دم فيه ولا حياة ، وأغضب بذلك تيبولو الشيخ وجويا الشاب . ولكنه كافح كفاحا نافعا لينهى اسراف الزخرفة الباروكية وشطحات خيال الروكوك . ومن أقواله أن الفن يجب أن يسعى أولا إلى « أسلوب طبيعى » بمحاكاته الأمينة للطبيعة ، وعندها فقط يستهدف الأسلوب السامى « الذى انتهجه الاغريق . فكيف السبيل إلى هذا التسامى ؟ بإقصاء الناقص وغير المتصل بالموضوع ، بالربط بين الكمالات الجزئية التى توجد هنا وهناك فى أشكال مثالية يتصورها خيال مدرب مع تجنب كل ضروب الاسراف .

وافتتح منجز انتاجه برسم أرباب أولمب على سقف مخدع الملك ، وزين مخدع الملكة بصورة مماثلة . وربما ادرك منجز أن صاحبى الجلالة ، لم يتبعاه تماما حتى جبل أولمب ، لذلك رسم رافدة مذبح للمصلى الملكى ، « ميلاد المسيح » و « انزال المسيح من الصليب » . وكان يضنى نفسه فى العمل ، ولا يأكل إلا قليلا ، وبات عصبى المزاج ، وانهارت صحته ، وخيل اليه أنه واجد البرء فى روما . ومنحه شارل أجازة مدها منجز إلى أربعة أعوام . وفى فترة اقامته الثانية بأسبانيا أضاف مزيدا من الرسوم الجصية إلى القصور الملكية فى مدريد وارانجيز . ولكن صحته تداعت مرة أخرى ، فالتمس من الملك الاذن له بالتقاعد فى روما . ومنحه الملك الطيب طلبته ، وأجرى عليه معاشا متصلا من ثلاث آلاف كراون فى العام .

ولكن ألم يكن فى أسبانيا آنئذ فنانون وطنيون يرسمون ؟ أجل كانوا كثيرين ولكن اهتمامنا الذى تضاءل مع بعد الشقة والزمان خلفهم على هامش الشهرة الخابية . كان هناك لويز ميلنديز للذى كاد يعدل شاروان فى صور الطبيعة الصامتة (الطيـــور والفواكه) ويحتفظ متحف البرادو بأربعين منها ، ومتحف بوسطن بمثال منها فاتح للشهية ، ولكن اللوفر يبزهما جميعا بصورة ذاتية رائعة . وهناك لويز باريت أى الكازار ، الذى بارى كاناليتو فى تصـــوير مناظر المدينة كما ترى فى لوحته Puerta de Sol — أكبر ميادين مدريد ، وأنطونيو فيلادامات ، الذى شهد له منجز بأنه أكفأ مصورى العصر الاسبان ، وفرانسسكو بايو إى سوبياس ، الرقيق المتجهم المخلص لفنه ، الذى نال الجائزة الأولى فى الأكاديمية عام ١٧٥٨ ، وصمم قطع النسيج لمنجز ، وأصبح صديقا ، وعدوا ، وصهرا لجويا .

٩ — فرانسسكو دى جويا أى لوسيبنتس

أ — نشأته

اتخذ فرانسسكو اسم قديس حام شأن جميع الصبيان الايبيريين ، ثم اسم أبيه خوزيه جويا ، واسم أمه أورجاسيا لوسيبنتس — أى ربة اللطف والنور . وكانت تنتمى إلى طبقة الهيدلج (أدنى طبقات النبلاء) ومن هنا إضافة « دى » التى أدخلها فرانسسكو على اسمه . ولد فى ٣٠ مارس ١٧٤٦ بفونتينودوس ، وهى قرية ارجونية يسكنها ١٥٠ من الأنفس ولا يزينها شجر — إنما هى تربة حجرية ، وصيف قائظ ، وشتاء قارس ، يأتى على الكثيرين ، ويصيب الاحياء بالاكتئاب والخشونة .

وراح فرانسسكو يتلهى بفرشاة الرسم ، فرسم فى صباه لكنيسة القرية صورة للعذراء « سيدة العمود » ؛ حامية أرجون . وفى ١٧٦٠ انتقلت الأسرة إلى سرقسطة ، حيث اشتغل الأب بالطلاء بالذهب ، وأتاح له دخله أن يوفد ابنه لدراسة الفن على يد خوزيه لوزان . ومع هذا الفنان وخوان راميريز نسخ جويا صور كبار الرسامين القدامى ، وقلد تلوين تيبولو الناعم ،

وتعلم من التشريح قدرا يكفى لرسم صور العرايا المحرمة . وفى رواية أنه شارك — ثم تزعم بعد قليل — فريقا من الشباب الجموح الذين دافعوا عن قريتهم ضد قرية أخرى ، وكيف أن بعض الفتيان قتلوا فى إحدى المعارك ، وكيف فر فرانسسكو إلى مدريد مخافة أن يقبض عليه .

وفى ديسمبر ١٧٦٣ دخل امتحاناً للالتحاق بالأكاديمية فرسب .وتصف الأسطورة حياته الصاخبة فى العاصمة ، ولكن لا نعلم على التحقيق إلا أن جوياً كان بينه وبين القوانين حب مفقود . وعاد إلى دخول امتحان المسابقة فى ١٧٦٦ ورسب . وربما كان هذا الرسوب المتكرر من حسن حظه : فقد أفلت من وصاية منجز الأكاديمية ، ودرس الصور التى كان تيبولو يرسمها فى مدريد ، ثم أرسى أسس أسلوب فذ تغلب عليه شخصيته . وتروى الأسطورة بعد ذلك أنه انضم إلى فريق من مصارعى الثيران وسافر معهم إلى روما فى تاريخ مجهول . ولقد كان دائما شديد التحمس لمصارعى الثيران الراكبين (التوريادور) ومرة وقع باسم دى لوس تورس . كتب إلى موارنين فى شيخوخته يقول « كنت فى شبابى مصارع ثيران ، لا أرهب شيئاً وسيفى فى يدى »(٩١). وربما قصد بهذا أنه كان من أولئك الصبية المغامرين الذين يصارعون الثيران فى الشوارع . على أية حال وصل إلى إيطاليا ، لأنه فى ١٧٧٠ فاز بالجائزة الثانية فى مسابقة بأكاديمية الفنون الجميلة فى بارما . وتحكى الأسطورة أنه تسلق قبة كاتدرائية القديس بطرس وسطا على دير ليخطف راهبة . وأكثر من هذا احتمالا أنه كان يدرس صور ما ناسكو الذى ربما كان لتلوينه القاتم ، وأجساده المعذبة ، ومناظر محكمة تفتيشه ، من الأثر العميق فى نفسه مافاق الأوضاع الهادئة الكلاسيكية التى أوصى بها منجز فى أسبانيا .

وفى خريف ١٧٧١ نلتقى به فى سرقسطة التى عاد إليها ليزين مصلى فى الكتدرائية « الكنيسة الكبرى لسيدة العمود » .

وقد أجاد التصوير ، وكوفئ بخمسة عشر ألف ريال نظير جهد استغرقه ستة أشهر ، واستطاع الآن أن يعول زوجه إذا تزوج . وعامل القرب

فى تقرير اختيارنا شريك الحياة ، وهكذا تزوج (١٧٧٣) خوزيفاً بايو ، وكان فيها ريعان الشباب ، ولها شعر ذهبى ، ومكانها فى متناوله . وقد استخدمها نموذجاً ، ورسم صورتها مراراً ، وصورتها المعلقة فى البرادو تظهرها متعبة بتكرار الحمل ، أو محزونة لخيانات فرانسسكو لها (٩٢) .

ثم نقل إلى مدريد (١٧٧٥) . وكلفه منجز (١٧٧٦) — بتوصية من من بايو على الأرجح — بأن يرسم لوحات قماشية كبيرة تصلح رسوماً تخطيطية (كرتونات) للمصنع الملكى للنسجيات الذى أنشأه فليب الخامس على غرار مصنع الجوبلان . وغامر جويا الآن برفض خطير ، فاتخذ قرارا شكل مستقبله . ذلك أنه أغفل ميل منجز إلى الميثولوجيا الكلاسيكية وتاريخ الأبطال ، فرسم على اتساع كبير وبألوان ناصعة الناس الذين ينتمون إلى طبقته وعصره — رسم كدهم وجهم ، ومهرجاناتهم وأعيادهم ، مصارعاتهم مع الثيران ولعبهم بطائرات الورق ، أسواقهم ورحلاتهم الخلوية وألعابهم ، وإلى هذه الواقعية أضاف فى جرأة أشياء تخيلها ولكنه لم يرها قط . أمامنجز فقد ارتفع إلى مستوى الموقف : فلم يذم هذا الخروج على التقاليد الأكاديمية ، وشعر بنبض الحياة يسرى فى الأسلوب الجديد ، وأعطى هذا المتمرد مزيدا من التكليفات . وأنتج جوياً خلال خمسة عشر عاما خمسة وأربعين كرتوناً أساسيا لعماله ، بينما راح ينتقل إلى مجالات أخرى بثقة متزايدة . واستطاع الآن أن يأكل ويشرب مطمئناً . كتب إلى صديقه زاباترا « أن دخلى يتراوح بين إثنى عشر ألفاً وثلاثة عشر ألف ريال فى السنة » .

على أن نوعا من البكتريا تطفل على هذا النجاح الذى أصابه ولسنا نعرف مصدر الزهرى الذى إبتلى به جويا ، ولكننا نعرف أنه مرض مرضا خطيرا فى أبريل ١٧٧٧(٩٣) . وأبلى منه شيئا فشيئا ، ولكن لعل المرض كان له بعض الأثر فى التشاؤم الذى شاب فنه ، وربما فى فقده السمع فى ١٧٩٣ . على أنه تمالك صحته فى ١٧٧٨ بالقدر الذى أتاح له المشاركة فى مشروع وضعه شارل الثالث ليذيع فى خارج أسبانيا بالنسخ المطبوعة عن الكلشيهات ذخائر الفن الأسبانى . ولهذا الغرض نسخ جويا ثمانى عشرة

لوحة لفيلاسكيذ ، ومن هذه النسخ صنع محفورات ، وكانت هذه مهارة جديدة عليه ، وظل منقاشه حينا مترددا فجا . ولكن من هذه البداية تطور ليصبح من أعظم الحفارين بعد رمبرانت . وسمح له بأن يقدم نسخه بشخصه إلى الملك ، وفى ١٧٨٠ سجل واحدا من مصورى البلاط . وقبل الآن فى الأكاديمية آخر الأمر . وحوالى ١٧٨٥ رسم لوحة شارل الثالث الشهيرة . التى بدا فيها الملك لابسا حلة الصيد . مهيأ للقتل ، ولكنه هرم . مكدود ، متقوس الساقين محدودب الظهر ، هنا ضحى جويا كعادته بالرضى فى سبيل الصدق .

واستقدم جويا أمه وأخاه كاميلو بعد موت أبيه ليعيشا معه ومع خوزيفا والأطفال . وقبل شتى التكليفات ليعول هذه الأسره المتكاثرة : فرسم لوحة جصية فى كنيسة سان فرانسسكو الجراندى ، وصورا دينية لكلية كالاترافا بسلمنقه ، ومشاهد من الحياة اليوميه لمنزل دوق أوزونا الريفى ، ثم رسم لوحات للأشخاص لكونها أربح فرع فى مهنته . فرسم عدة لوحات لا وزونا[٩٤] ، واحدة للدوق وأسرته — يبدو فيها الاطفال شديدى التصلب وأخرى لدوقه أوزونا بثلاثة أرباع طولها[٩٥] — وهى معجزة من الوان الزيت تستحيل حريرا ومخرمات .

وربما كان جويا سعيدا عام ١٧٨٤ . ففى ذلك العام ولد له خافيد ، وهو الأبن الوحيد الذى قدر له أن يبقى حيا بعد موت أبيه . وأزيح الستار عن الصور الجصية التى رسمها لكنيسة القديس فرنسيس الكبير فى احتفال رسمى . وأثنى عليها مشاهدوها كأروع لوحة فى ذلك العهد ، وكان الملك وكل حاشيته حضورا ، وقد شاركوا فى الثناء . وحوالى ١٧٨٧ رسم جويا لوحة المركيز دى بونتيخوس . وهى الآن من أنفس ما تملكه قاعة الصور القومية فى وأشنطن . وبعد عام عاد إلى رسم الطبيعة فى لوحته La Pradera de San Isidro[٩٦] — وتمثل حقلا غص بالمتنزهين يحتفلون بعيد القديس حامى مدريد العظيم بالركوب والتمشى والجلوس والأكل والشرب والغناء

والرقص على شواطىء ما نزاناريس المعشية . وهى لا تعدو أن تكون تخطيطا، ولكنها آية من آيات التصوير .

ولم يزد عمر جويا على الثالثة والأربعين حين مات شارل (١٧٨٨) ولكنه حسب نفسه قد شاخ . وكان قد كتب فى ديسمبر من العام إلى زاياتر يقول « لقد شخت ، وملأت التجاعيد وجهى حتى أنك لن تستطيع التعرف على « لولا أنفى الأفطس وعيناى الغائرتان[٩٧] » . وما كان فى إستطاعته التنبؤ بأنه مازال أمامه فسحة فى الأجل تمتد أربعين سنة ، وبأن أكثر مغامراته شططا وأروع إنتاجه مستكنان فى مستقبل أيامه . لقد تطور فى بطء والآن سيكرهه الغرام والثورة على أن يتابع السير وإلا كان من المغرقين . فارتفع مع الأحداث ، وأصبح أعظم فنان فى جيله .

(ب) غرام

وقد شغله ١٧٨٩ رسم صور للملك والملكه الجديدين احتفالا بدخولهما مدريد رسميا فى ٢١ سبتمبر . وكان « فيليبى » بن شارل الثالث البكر ، قد أقصى عن وراثة العرش لعتهه ، فآل العرش للأبن الثانى الذى وصفه مؤرخ غير متعاطف بأنه « نصف معتوه[٩٨] » لا أكثر . وكان شارل الرابع ساذجا حسن الظن بالناس ، فيه من الطيبه ما يكاد يغرى الأشرار بالشر . وكان قد انصرف إلى حياة القنص والأكل والأنجاب لافتراضه أنه مقصى عن وراثة العرش ، بحكم كونه الأبن الثانى . أما وقد بات الأن بدينا لين العريكه ، فأنه أستسلم راضيا لزوجته ماريا لويز البارمية ، وتجاهل — أو جهل — فسقها مع عشاقها ، ورقى عشيقها ما نويل دى جودوى رئيسا للوزارة (١٧٩٢ — ٩٧) .

وكانت الملكه الجديده قد داعبت الأفكار التحرريه قبل ولايتها للعرش، وقد شجع شارل الرابع فى أول سنى حكمه فلوريدا بلانكا ، وخوفيللانوس، وكامبومانيس (وكلهم رسمهم جويا) على المضى فى برنامج أصلاحاتهم . غير أن سقوط الباستيل روع شارل الرابع وفلوريدا بلانكا فارتدت الحكومة

إلى رجعية سياسية أعادتها إلى التعاون الكامل مع الكنيسه بأعتبارها أقوى معقل للملكية . وأهمل الكثير من القوانين التقدمية التى سنت فى عهد شارل الثالث ، وأستعاد ديوان التفتيش بعض سلطاته ، وأوقف إستيراد الأدب الفرنسى ، وحظرت جميع الصحف إلا صحيفة مدريد اليومية الرسمية ، وأقصى عن البلاط خوفيللانوس وكامبومانيس وأراندا . وابتهج الشعب بانتصار إيمانهم الذى يعتزون به . وفى ١٧٩٣ أنضمت أسبانيا إلى الحرب التى خاضتها الملكيات ضد فرنسا الثائرة .

فى وسط هذا المعمعان حالف الحظ جويا . ففى أبريل ١٧٨٩ عين « رساما للحجرة » فلما مرضت خوزيفا وأشار الطبيب بهواء البحر علاجا لها صحبها جويا إلى بلنسيه (١٧٩٠) حيث كرمه القوم كأنه فيلاسكويز أسبانيا الجديد . ووأضح أن الطلب أشتد عليه من أقصى أسبانيا إلى أقصاها ، لأننا نجده فى ١٧٩٢ فى قادس ضيفا على سبستيان مارتينيز . وفى طريق عودته أصيب فى أشبيلية بالدوار والشلل الجزئى ، فعاد إلى صديقه فى قادس ، وظل نهبا للقلق طوال فترة نقاهة غير قصيرة .

فأى مرض هذا الذى شكا منه ؟ لقد وصفه بايو وصفا غامضا يقوله أنه « ذو طبيعه رهيبة جدا » . وخامره الشك فى أن جويا سيبرأ منه يوما ما[٩٩] . وكتب رياتر صديق جويا الوفى فى مارس ١٧٩٣ : « لقد جلب على جويا هذا المأزق إفتقاره إلى التدبر . ولكن لأبد من مواساته بكل الشفقة التى يتطلبها مصابه[١٠٠] . » وقد فسر دارسون كثيرون هذا المرض بأنه من أعقاب الزهرى[١٠١] ولكن آخر تحليل طى رفض هذا الرأى وشخصه بأنه التهاب أعصاب تلافيف الأذن[١٠٢] . أيا كان الأمر فأن جويا كان فاقد السمع حين عاد إلى مدريد فى يوليو ١٧٩٣ ، وكذلك ظل إلى يوم مماته . وفى فبراير ١٧٩٤ كتب خوفيللانوس فى يوميته « كتبت إلى جويا ، فرد بأنه كان عاجزا حتى عن الكتابه نتيجة السكته الدماغيه التى أصيب بها [١٠٣] » . ولكن الشلل زال شيئا فشيئا ، وما وافى عام ١٧٩٥ حتى كان فى جويا من العافيه ما أغراه بالوقوع فى الحب .

وكانت تريزا كاتيانا ماريا ديل بيلار الدوقة الثالثة عشرة من سلالة ألبا الشهيرة . وكان أبوها قد تشرب الفلسفة الفرنسية ، فرباها على مبادىء متحررة ، وتلقت تعليما هيأ لها عقلا يقظا وإرادة عنيده . فلما بلغت الثالثة عشرة تزوجت الدوق خوزيه دى توليدو أوزوريو ، ذوق ألبا البالغ من العمر تسعة عشر ربيعا . وكان الدوق رقيق الجسد معلولا ، فلزم بيته أكثر الوقت وأغرق نفسه فى الموسيقى . ورسمه جويا جالسا إلى البيانو أمام نوتة لهايدن . وكانت الدوقة متغطرسة جميلة شهوانية . وقد لاحظ رحالة فرنسى أنه « ليس فى رأسها شعرة لا تثير الشهوة[١٠٤] » ، وكانت تشبع رغباتها دون قيد من فضيلة أو نفقة أو طبقة . وأقتنت فى بيتها شخصا معتوها ، وراهبا أعور ، وزنجية صغيرة أصبحت ربيبتها المفضلة . ولكن كان وراء هذه المغامرات الجريئة نفس سمحة كريمة ، ولعلها أنعطفت نحو جويا لأنه كان أصم تعسا بقدر ما مالت إليه لأنه يستطيع أن يخلدها بفرشاته .

ولا بد أنه رآها مرارا قبل أن تقف ليرسمها . لأنها كانت تحوم داخل البلاط وخارجه وتثير الأقاويل بمغازلاتها وبعدائها الجرىء للملكية . وأول صورة تحمل تاريخا رسمها لها تبدو فيها بطولها كله . وقد لفت قسماتها النحيلة الحارة فى لمة من الشعر الأسود . ويمناها تشير إلى شىء على الأرض . فإذا تأملنا الصورة قرأنا عليها بوضوح هذه العبارة « إلى دوقة ألبا دى جويا ١٧٩٥[١٠٥] » . وهنا إيماءة إلى صداقة قائمة فعلا . وليست الصورة من روائع جويا . ويفضلها كثيرا تلك التى رسمها فى العام نفسه لفرانسسكو بايو الذى كان قد مات لتوه . وفى نوفمبر خلفه جويا مديرا لمدرسة التصوير بالأكاديمية .

ومات دوق ألبا فى يونيو ١٧٩٦ . وأعتكفت الدوقة فترة حداد وجيزة فى ضيعتها الريفيه بسانلوكار ، بين أشبيلية وقادس . وليس من المؤكد أن جويا رافقها ، ولا علم لنا إلا بغيابه عن مدريد من أكتوبر ١٧٩٦ إلى إبريل ١٧٩٧ . وبتدوينه فى كراستين رسوما لبعض ما رأى فى سانلوكار . ومعظم الرسوم تبدو فيها الدوقة تستقبل الضيوف ، أو تربت الزنجية ، أو تشد شعرها فى نوبة غضب ، أو تتقيل (بينما تنقل الخادمة المبولة)[١٠٦] ، أو يغشى

عليها فى نزهة ، أو تعبث مع منافس أو آخر ممن ينافسون جويا على يديها الملاطفتين . وتدل الرسوم التخطيطية على غيرته المتصاعدة ، وتبدو فيها أيضا امرأة أخرى — تخرج عارية من الحمام ، أو ترقد على الفراش نصف كاسية أو تضع الرباط على ساق بديعة التكوين ، ولعل جويا انغمس كالدوقة فى إنحرافات الحب . ومع ذلك فالراجح أنه فى سانلوكار رسم أعظم ما يفخر به من صورها[١٠٧] — فى زى « ماخا » وقحة ترتدى ثوبا أسود فى صفرة ، بخزام من القرمز والذهب حول خصرها النحيل ، وطرحة سوداء فوق رأسها ، وفى يمناها (وهى فى حد ذاتها من آيات التصوير) خاتمان يحمل أحدهما اسم « ألبا » والآخر « جويا » ، وتشير سبابتها إلى أسمه ، وتاريخ ١٧٩٧ ، مكتوبين على التربة الرملية تحت قدميها . وكان يرفض دائما بيع هذه اللوحة .

وكانت مغامرة غرامه المزدهر قد صورت حين رجع جويا إلى مدريد . وتهمها بعض رسومه « الكابريكو » (١٧٩٧) بالأستسلام الفاجر لأشتات من ذكور يفتقرون إلى اللياقة . وقد أتهمها جودوى باغواء وزير الحربية وكتب إلى الملكة يقول أن ألبا وكل إنصارها ينبغى أن يدفنوا فى حفرة كبيرة[١٠٨] » . وحين ماتت الدوقه (٢٣ يوليو ١٨٠٣) وهى بعد فى الأربعين ، أرجفت مدريد أنها سممت ، وعطف الناس عليها لأنها خلفت قدرا كبيرا من ثروتها الضخمه لخدمها . كذلك أوصت براتب سنوى يبلغ ٣،٦٠٠ ريال لخافير بن جويا . وأمر الملك بالتحقيق فى موتها — وعين جودوى رئيسا للمحققين — وزج بالطبيب وبعض أتباع الدوقة فى السجن ، وألغيت وصيتها ، وحرم خدمها من أنصبتهم التى أوصت لهم بها ، وسرعان ما تزينت الملكة بأجمل جواهر ألبا[١٠٩] .

(ج) قمـــة المجد

كان جويا قد إستقال عام ١٧٩٧ من منصبه مديرا للتصوير فى الأكاديمية ، فقد أعجزته كثرة شواغله الآن عن التدريس . وفى ١٩٧٨

أختير لزخرفة قبة كنيسة سأن أنطونيودى لا فلوريدا وقلب قوصراتها ، ومع أنه أثار غضب الأكليروس بتصويره الملائكة بأطراف شهوانيه ، إلا أن الكل تقريباً أجمعوا على أنه نقل إلى تلك الفراغات المقدسة ، فى صورة الهام ، حياة شوارع مدريد ودمها . وفى ٣١ أكتوبر ١٧٩٩ عين « مصور البلاط الأول » براتب قدره خمسون ألف ريال فى العام . ورسم فى (١٨٠٠) أشهر لوحاته قاطبة وهى « شارل الرابع وأسرته[١١٠] » — وهى كشف قاس عن بلاهة الأسرة المالكة ، ونحن نقشعر حين نتخيل منظر هذه المجموعة من الأبدان المنتفخة والأرواح القميئه إذا جردوا من ثيابهم البراقة — وتلك براعة فى الأشعاع والتألق ندر أن بزها رسام فى تاريخ الفن . ويروى التاريخ أن الضحايا أعربوا عن كامل الرضى عن اللوحة[١١١] .

وفى ركن من اللوحة رسم جويا نفسه . وعلينا أن نغفر أنانية صوره الذاتية الكثيرة ، ولا ريب فى أن بعضها كان دراسات تجريبيه استخدم فيها مرآة ، شأنه فيها شأن ممثل يتدرب على التعبير بسحنته أمام المرآة ، وأثنتان منهما رائعتان . وخيرها (اللوحة الأولى من الكابريكو) يبدو فيها فى الخمسين ، أصم ولكن فى كبرياء ، له ذقن عدوانى ، وشفتان شهوانيتان وعيون فظة ، وشعر ينمو فوق أذنية ويكاد يصل إلى ذقنه ، وتتوج هذا كله قبعه حريرية فأخرة تعلو رأسه الضخم كأنها تحد لجميع نبلاء الدنيا المحظوظين . وبعد تسعة عشر عاماً من رسمه هذه اللوحة ، وبعد أن نجا من ثورة ، رمى القبعة ، وفتح قميصه عند عنقه ، وكشف عن نفسه فى مزاج ألطف ، لم تزل له كبرياؤه ، ولكن فيه من الثقة الكبيرة بنفسه ما يربأ به عن التحديات[١١٢] .

وكان رسم الأشخاص أقوى نواحى فنه . ومع أن معاصريه كانوا يعلمون بأنه لن يتملقهم ، فأنهم خضعوا فى لهفة لحكم فن راودهم الأمل فى أنه سيحمل ذكراهم قرونا طوالا سواء كانت الذكرى مبعث صيت ذائع أوعار يخزيهم . ولدينا علم بثلاثمائة نبيل وثمانية وثمانين عضوا فى الأسرة المالكة جلسوا أمامه ليرسمهم ، وقد بقيت من هذه الصور مائتان . ومن أفضلها صورة لفرديناند جيمارويه ، السفير الفرنسى ، وقد أتى بها صاحبها إلى

باريس ، وإقتناها اللوفر فى ١٨٦٥ ؛ وإليها يرجع بعض الفضل فى بعث شهرة جويا فى فربسا . وأروع ما رسم من صور الأطفال صورة دون ما نويل أوزوريو دى زونيجا ، المحفوظة بمتحف المتروبوليتان للفن بنيويورك ، هنا إدرك جويا فيلاسكيز . وقد ضارع فيلاسكيز ثانية فى كوكبة النساء اللآتى صورهن ، وأنتظمت صوره لهن أشتاتا ، فيها النحيلات مثل « الطفلة الملكية ماريا يوزيفا » ، وفيهن المرأة الساحرة الخلابة مثل السنيورا جارثيا(١١٣)، والممثلة المكتهلة « لاتيرانا(١١٤) » — جمال مصور ولكنه يخلى مكانه للشخصية .

أما أكثر نساء جويا سفورا فهى « الماخا » الوقحة التى رقدت حوالى (١٧٩٨) خالية من كل زينة ليرسم لها « الماخا العارية » ؛ ثم كاسية فى اغراء ليرسم لها « الماخا فى ثيابها » وهاتان اللوحتان الصنوان تجتذبان من رواد البرادو عددا غفيرا كالذى تجتذبه الموناليزا من رواد اللوفر . والماخا العارية ولوحة فيلاسكويز « فينوس فى المرآة » هما الصورتان العاريتان الوحيدتان فى التصوير الأسبانى ؛ لأن رسم العرايا فى الفن الأسبانى كان عقابه السجن سنة ومصادرة المنقولات والنفى . وقد غامر به فيلاسكويز فى حماية فليب الرابع ، وجويا فى حماية جودوى الذى وافق جويا على تفضيل الثديين الكبيرين والخصر النحيل والشفاه الممتلئة . « وماخا » جويا لم تكن صورة للدوقة ألبا رغم ما تواتر عنها ، كذلك لم تكن الكاسية التى رسمها جويا لتحل محل العارية حين جاء الدوق الغاضب (كما تروى الأسطورة) وفى عينيه نذير المبارزة . ولكن اللوحتين اشترتهما الدوقة أو أعطيتا لها ، وانتقلتا بعد وفاتها إلى مجموعة جودوى .

وبينما كان جويا يمد أسرته بالمال الذى يكسبه من تصـــوير الأشخاص ، راح يتسلى (١٧٩٦ — ٩٧) بمحفورات وصور مائية نشرها فى ١٧٩٩ على أنها « نزوات » — ثلاث وثمانون صـــورة لعقل أرزن فيه خشونة وغضب ، تصف فى هجاء قاتم وعناوين ساخرة عادات جيله وأخلاقه ونظمه . وألمع هذه السلسلة هى رقم ٤٣ : وهى تصور

رجلاً استسلم للنوم على مكتبه بينما العفاريت تحوم حول رأسه : وعلى المكتب عبارة تقول « حلم العقل يبعث العفاريت » . وقد فسر جويا هـــذا بأن « الخيال إذا هجره العقل أفرخ العفاريت ، وإذا اتحد بالعقل كان خالق الفنون ومبدع أعاجيبها [١١٤] » . وهـــذه طعنة للخرافات التى أظلمت عقل أسبانيا ، ولكنها كذلك وصـــف لنصف فن جويا . فلقد كانت الأحلام المرعبة لاتبرحه ، « ونزواته » على الأخص تمتلىء بمناظرها المزوعة . هناك ترى جسد الإنسان وقد انحط إلى عشرات الأشكال الوارمة ، العجفاء ، الكسيحة ، الوحشية ، والبوم والقطط تنظر إلينا شزرا ، والذئاب والنسور تجوس خلسة ، والساحرات يطرن فى الهواء ، والأرض تبعثرت فيها الجماجم وعظام السيقان وجثث الأطفال حديثى الولادة حديثى الموت . وكأنما تقفز خيال هيرونيموس بوش المريض عبر فرنسا متخطيا القرون ليدخل عقل جويا ويشيع فيه الفوضى .

أكان جويا عقلانيا ؟ كل ما نستطيع أن نقوله هو أنه فضل العقل على الخرافة . ففى أحد رسومه صور شابة مكللة بالغار ممسكة بميزان تطارد طيورا سوداء بالسوط ، وتحت الصورة كتب جويا « أيها العقل المقدس لاتبق على أحد[١١٦] » . وفى رسم آخر رهبان يجردون أنفسهم من أرديتهم[١١٧] ؛ وقد ركب على جسد راهب يصلى وجه مجنون[١١٨] . وصور « محكمة ديوان التفتيش[١١٩] » مشهداً كئيباً من ضحايا مساكين تحاكمهم سلطة باردة الشعور . وصور يهودياً مقيداً بالأغلال فى زنزانة التفتيش ، وكتب هذا التعليق « أى زاباتا ، أن مجدك سيدوم إلى الأبد [١٢٠] » . أكان هذا صدى لكتاب فولتير « أسئلة زاباتا » ؟ وقد رسم تسعاً وعشرين لوحة لضحايا التفتيش يعانون شتى العقوبات [١٢١] . وفى آخرهم رسم إنسانا مبتهجاً فوق هذا العنوان « الحرية المقدسة ! »[١٢٢] ومع ذلك ظل إلى يوم مماته يرسم علامة الصليب على وجهه فى ورع ، ويدعو المسيح والقديسين ويتوج رسائله برسم الصليب ، وربما كانت هذه كلها آثارا متخلفة من عادات كونها فى صباه .

د — ثـــورة

أكان جويا ثائراً ؟ كلا . لابل أنه لم يكن حتى جمهوريا . وليس فى فنه أو كلامه علامة تدل على أنه يرغب فى الاطاحة بالملكية الأسبانية . وقد ربط شخصه وحظه بشارل الثالث ، وشارل الرابع ، وجودوى ، وجوزف بونابرت ، وعاشر نبلاء البلاط فى سرور وابتهاج . ولكنه خبر الفقر من قبل ، وما زال يراه من حوله ، ونفره إملاق الجماهير وماترتب عليه من جهل وخرافه ، وتقبل الكنيسة للفقر الجماعى نتيجة طبيعية لطبيعة البشر وفوارقهم . وقد خلد نصف فنه الأغنياء ، أما النصف الآخر فكان صرخة تطالب بانصاف الفقراء ، واحتجاجا على همجية القانون وديوان التفتيش والحرب . كان موالياً للملكية فى لوحاته الشخصية ، كاثوليكيا فى صوره ، متمرداً فى رسومه ، ففيها أعرب بقوة تكاد تكون وحشية عن مقته للظلامية والظلم والحماقة والقسوة . ويمثل رسم منها رجلا ممدداً فوق مخدعه وعنوان الرسم « لأنه اكتشف حركة الأرض » . ورسم آخر يصور امرأة وضعت فى المقطرة لأنها « أبدت عطفها على قضية التحرير » .

ومن هؤلاء الأسبان الذين سموا أنفسهم تحرريين ؛ يبدو أنهم كانوا أول حزب سياسى استعمل ذلك الاسم . وقد عنوا به التدليل على شوقهم إلى الحرية — حرية العقل من الرقابة ، وحرية الجسد من الانحطاط ، وحرية الروح من الطغيان . وكانوا قد تلقوا فى عرفان « التنوير » الوافد من حركة التنوير الفرنسية . ورحبوا بدخول قوة فرنسية فى أسبانيا (١٨٠٧) ، والواقع أن نصف السكان رحبوا بها جيشاً للتحرير ؛ ولم يسمع احتجاج حين استقال شارل الرابع وتوج ولده فرديناند السابع تحت حماية جنود مورا . وقد رسم جويا صورة للحاكم الجديد .

ولكن مزاج الشعب ومزاج جويا تغيرا حين استدعى نابليون شارل الرابع وفرديناند السابع إلى بايون وخلعهما ؛ ونفى أحدهما إلى ايطاليـــا

والآخر إلى فرنسا ، ونصب أخاه جوزف ملكا على أسبانيا . وتجمع حشد غاضب أمام القصر الملكى . وأمر مورا جنده بأن يخلو الميدان ، ففرالجمع ، ولكنه عاد إلى الاحتشاد حتى بلغوا عشرين الفا فى ميدان مايور . فلما زحف الجنود الفرنسيون والمماليك نحو الميدان أطلقت عليهم النيران من النوافذ والبواكى ، فاشتد غضبهم ، واقتحموا البيوت وراحوا يقتلون أهلها دون تمييز . ودارت بين الجند والجماهير معركة امتدت طوال النهار ، هو يوم مايو الأشهر (٢ مايو ١٨٠٨) ، وسقط مئات الرجال والنساء صرعى ، وشهد جويا من موضع قريب موت شطراً من المذبحة(١٢٣) . وفى ٣ مايو أعدم ثلاثون من السجناء الذين قبض عليهم الجند بواسطة فرقة لإطلاق النار ، وأعدم كل أسبانى أمسك متلبساً ببندقية فى يده . وهبت أســبانيا الآن كلها تقريبا ثائرة على الفرنسيين ، وسرت « حرب تحرير » من أقليم لأقليم ، ولطخت الطرفين بما اقترفا من فظائع وحشية وشهد جويا بعضها ولم تبرحه ذكراها حتى يوم مماته . وفى ١٨١١ كتب وصيته مخافة أن يتفاقم سوء الحال . وفى ١٨١٢ ماتت خوزيفا . وفى ١٨١٣ استولى ولنجتن على مدريد ، وعاد فرديناند السابع إلى عرشه .

واحتفل جويا بانتصار أسبانيا برسم لوحتين من أشهر لوحاته(١٨١٤)(١٢٤) . إحداهما « يوم مايو » أعاد فيها بناء ما رأى أو سمع أو تخيل من المعركة الناشبة بين جماهير مدريد وجنود الفرنسيين والمماليك . فوضع المماليك فى القلب ، لأن اشتراكهم فى القتال هو الذى أثار أبلغ استنكار فى الذاكرة الأسبانية . ولا داعى للسؤال هل كانت الصورة تاريخا صحيحاً ، فهى فن رائع قوى ، ابتداء من تدرجات الألوان التى توحض على جواد المملوك المجند وانتهاء بوجوه الرجال الذين روعهم ووحشهم الاختيار بين أن يقتلوا أو يقتلوا . وأنصع حتى من هذه اللوحة اللوحة الأخت « الرمى بالنار فى الثالث من مايو » — وفيها فرقة لحماة البنادق الفرنسيين يعدمون السجناء الأسبان . وليس فى فن جويا ماهو أبلغ وقعاً فى النفس من التباين بين الرعب والتحدى فى الشخصية الوسطى فى تلك المذبحة .

والآن وقد بات جويا أرملا ، أصم ، مكرها على الصمت ، فقد انكفأ إلى فنه وهو مايزال « مصور الحجرة الملكية » ذا المعاش المقرر ، ولكنه لم يعد أثيراً لدى البلاط . ولعل أقوى محفوراته قد حفرها فى ١٨١٢ ، وهى « العملاق »[١٢٥] — وتمثل هرقول بوجه كاليبان ، جالساً على حافة الكرة الأرضية ، كأنه مارس يستريح بعد حرب ظافرة . وكان طوال الفترة من ١٨١٠ يرسم رسوماً تخطيطية صغيرة ثم يحفرها ويطبعها ، وقد سماها «العقابيل القتالة لحرب أسبانيا الدموية مع بونابرت ، وغيرها من النزوات ». ولم يجرؤ على نشر هذه الرسوم الخمسة والثمانين ، ولكن أوصى بها لولده ، الذى باعها ابنه لأكاديمية سان فرناندو ، والتى نشرتها عام ١٨٦٣ بعنوان «كوارث الحرب » .

وهذه الرسوم التخطيطية ليست مشاهد عادية للمعارك يستخفى القتل فيها فى ثوب البطولة والمجد ، إنما هى لحظات من الرعب والقسوة تنسى خلالها ضوابط الحضارة الهزيلة فى حميا الصراع ونشوة الدماء . هنا بيوت تحترق وتنهار على ساكنيها ، ونسوة يهرعن إلى المعركة بحجارة أو رماح أو بنادق ، هنا نساء تهتك أعراضهن ، ورجال يشدون إلى أعمدة أمام فرق ضرب النار ، ورجال طاحت سيقانهم أو أذرعهم أو رؤسهم ، وجندى يحب الأعضاء التناسلية لرجل[١٢٦] وجثث تخوزق فوق جذوع أو أطراف الشجر الحادة ، ونساء ميتات مازلن قابضات على أطفالهن الرضع ، وأطفال يرقبون فى هلع قتل آبائهم ، وأكداس من الموتى يقذف بهم فى الحفر ، والنسور تستمتع بالتهام الموتى من الآدميين . وتحت هذه الصور أضاف جويا تعليقات ساخرة . « هذا ماولدت له »[١٢٧] ، « هذا رأيته »[١٢٨] ، « لقد حدث هكذا »[١٢٩] ، « ليدفنوا الموتى ويلزمو الصمت »[١٣٠]. وفى النهاية أعرب جويا عن يأسه وأمله . فالصورة رقم ٧٩ تمثل أمرأة تموت بين الحفارين والكهنة ، وعنوانها « الحق يموت » ، ولكن الصورة رقم ٨٠ تظهرها وهى تشع ضياء ، وتسأل « أتبعث حية مرة أخرى ؟ » .

٥ — انحـــدار

فى فبراير ١٨١٩ اشترى بيتاً ريفياً على الضفة الأخرى لنهر مانزاناريس . كانت الأشجار تظلله ، ومع أنه كان عاجزا عن سماع شدو الغدير الذى حف به ، فإنه استطاع أن يحس الدرس المستفاد من جريانه الهادىء المطمئن. وكان جيرانه يسمون بيته « بيت الأصم » . ولما كان خافير قد تزوج واستقل ببيته ، فقد صحب جويا معه دونا لورناديا وايس ، خليلة ومديرة لبيته . وكانت امرأة سليطة اللسان قوية البدن ، ولكن جوياً كان فى حصن حصين من لسانها السليط . وأتت معها بطفلين — صبى هو جيرمو ، وفتاة صغيرة مرحة تدعى ماريا ديل روزاريو ، وقد أصبحا عزاء لحياة الفنان فى شيخوخته .

ولقد كان فى أمس الحاجة لهذا الحافز الصحى لأن عقله كان على شفا الجنون . على هذا النحو فقط نستطيع أن نفهم « الرسوم الزنجية » التى غطى بها كثيرا من جدران البيت الذى كان مستشفاه . وراح يرسم بالأسود والأبيض فى الأغلب ، وكأنه يعكس ظلام عقله . ولم يعط حدودا معينة للأجساد التى رسمها وكأنه وفى لغموض رؤاه . ولكنه استعمل ألوانا جصية حسنة ليثبت بسرعة على الحائط صور حلم سريعة الزوال . وقد رسم على جدار جانبى طويل « رحلة سان ايزيدرو » وهو العيد الذى رسمه مبهجاً عام ١٧٨٨ قبل احدى وثلاثين سنة ولكنه الآن أصبح مشهداً كئيباً لمتعصبين متوحشين مخمورين . وجمع على الجدار المقابل أشخاصا أفظع حتى من هؤلاء فى « سبت الساحرات » وهن يتعبدن لنيس أسود ضخم على نحو رهيب لأنه شيطانهن وإلاههن الآمر . وفى أقصى الحجرة ارتفعت أبشع صورة فى تاريخ الفن ، صورة ساترن يفترس ابنه — مارد يفترس طفلا عاريا ، أكل رأسه وذراعه وأخذ يلتهم الذراع الباقية وهو يرش الدم من حوله[١٣١]. وربما كانت الصورة رمزاً مجنونا لأمم مجنونة تأكل بنيها فى الحرب . هذه رؤى رجل تعذبه أطياف الموت المروعة فهو يرسمها فى جنون ليطردها من ذاته ويثبتها على الجدار .

وفى ١٨٢٣ هربت ايوثاديا إلى بوردو بولديها لخوفها من الاعتقال

بسبب نشاطها الماسونى . وقرر جويا أن يلحق بهم بعد أن ترك وحيداً مع الجنون الذى رسمه على جدرانه . ولكنه لو رحل بغير إذن من الملك لفقد حقه فى الراتب الرسمى الذى كان يتقاضاه بوصفه عصور الحجرة ، فالتمس أجازة شهورا للاستشفاء بمياه بلومبيير ، فمنح الأجازة . ونقل ملكية بيته لحفيده ماريانو ، وفى يونيو ١٨٢٤ يمم شطر بوردو ، وليوثاريا ، وماريا ديل روزاريو .

وبات حبه لحفيده ماريانو العاطفة المشبوبة المتسلطة عليه كلما دنت منيته . فأوصى بمعاش سنوى للصبى وعرض دفع النفقات إذا أتى خافيير بماريانو إلى بوردو . ولم يستطع خافيير الحضور ولكنه أرسل زوجته وابنه ، فلما وصلا عانقهما جويا فى انفعال انهار بسببه واضطر إلى ملازمة الفراش . وكتب إلى ابنه يقول : « يا عزيزى خافيير ، إنما أردت أن أخبرك بأن هذه الفرحة كلها كانت فوق ما احتمل . . . أدعو الله أن يتيح لك أن تأتى وتأخذهما وعندها تفيض كأس سعادتى[١٣٢] » . وفى صباح الغد احتبس صوته وشل نصف بدنه . وطال احتضاره ثلاثة عشر يوما وهو ينتظر بصبر نافذ مجىء خافيير دون جدوى . ومات فى ١٦ ابريل ١٨٢٨ . وفى ١٨٩٩ نقل رفاته من بوردو إلى مدريد ودفن أمام مذبح كنيسة سان انطونيو دى لافلوريدا ، حيث رسم قبل مائة عام تحت القبة آلام الحياة الأسبانية وأحزانها وأفراحها وقصص حبها .

* * *